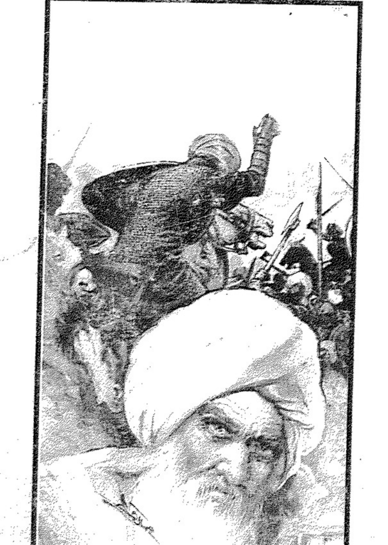
مكتبة الأسرة

روائع التراث

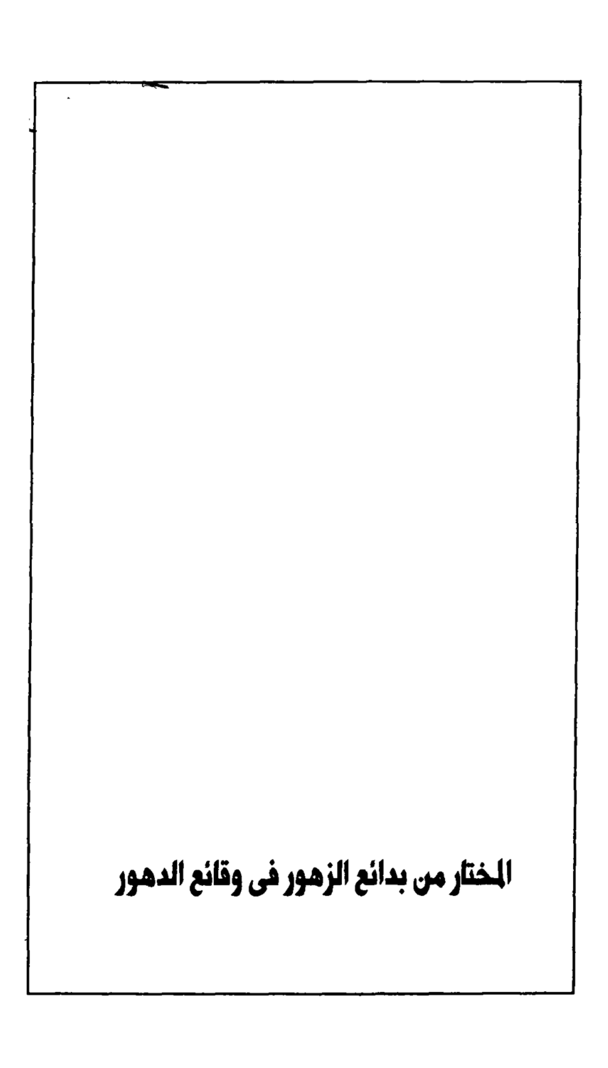
المختار من بدائع الزهور

لمحمد بن أحمد بن اياس الحنفى









المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهور



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع التراث)

المختار من
بدائع الزهور فى وقائع الدهور

محمد بن أحمد بن إياس الحنفى

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

المشرف العام

د. سمير سرحان

المختار من
بدائع الزهور فى وقائع الدهور

محمد بن أحمد بن إياس الحنفى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مختارات منتقاة بعناية من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس، وهى تتضمن يومياته، فى فترة تاريخية عاصرها بنفسه، وهى فترة الفتح العثمانى لمصر فى القرن السادس عشر الميلادى. وتتضمن المختارات أحداث ما يزيد قليلاً عن عام واحد (من المحرم عام ٩٢٢ هـ إلى ربيع الأول ٩٢٣ هـ) وهى الفترة التى وقعت فيها المعارك بين السلطان الغورى فى الشام مع السلطان سليم، ثم بين طومان باى فى مصر والغزاة.

وقد حرصت مكتبة الأسرة على عدم تعديل أى شئ فيما كتبه ذلك المؤرخ العظيم، وأن تحتفظ بأسلوبه الشائق الممتع الذى ينتفع فيه بالعامية المصرية الحية، وأن تضم مزيجاً من تصوير أحوال القاهرة ومصر فى تلك الأثناء وتصوير أحوال الحكام وصراعاتهم، بحيث تكون المختارات فى مجملها نموذجاً للحياة فى تلك الفترة الحافلة التى تبدأ بخبر اعتزام السلطان سليم الحرب وتنتهى باستيلائه على مصر وشنق طومان باى على باب زويلة.

والمختارات مقتبسة من الكتاب الكامل الذى أصدره مركز تحقيق التراث بهئية الكتاب، من تحقيق محمد مصطفى، عام ١٩٦١، ونرجو أن يشجع القارئ على الاستزادة من هذا التراث الخصب الحافل.

مكتبة الأسرة



المحرم سنة ٩٢٢ هـ (١٩١٦م)

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنّوا السلطان بالعام الجديد، ثم رجعوا إلى دورهم. - ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمان والبيع والشرى، وأن أحدا من الناس لا يكثر كلاما، وأن أحدا لا يخرج من بعد العشاء ولا يمشى بسلاح ولا يتزايا بزى المماليك ولا يغطى وجهه فى الأسواق ومن فعل ذلك شُنق من غير معاودة، وأن لا أحد يحتمى على المحتسب. وقد تقدم القول فى الجزء التاسع على أن المماليك الجُلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان وتوجه إلى المقياس وأقام به ثلاثة أيام، فمشت الأمراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أنه يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة، ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قُرّرت على السوقة أرباب البضائع، وتقدم القول بما كان سبب ذلك، فلما أن طلع السلطان إلى القلعة وبات بها، فلما أصبح نادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ولم يفعل شيئا مما وقع الاتفاق عليه مع المماليك الجُلبان، فشقّ عليهم هذه المناداة، وأشيع إثارة فتنة ثانية وكثر القال والقيل بين الناس، وكانت الناس قد استبشروا بأن السلطان ينادى بإبطال المشاهرة والمجامعة، فلما نادى كل شئ على حكمه نزل على الناس خمدة بسبب ذلك. - وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس

السلطان فى الحوش وعرض أغاوات الطباق، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال لهم: لا تسمعوا للمماليك القرانصة الذين يرمون بينى وبينكم الفتن وتشمتون العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا ولابد من خروج تجريدة عن قريب، حصلوا معكم ذهب ينفعكم إذا سافرتم، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته، ما يبقى وراكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة. فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا يثيرون فتنة فى ذلك اليوم، وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة، وقد استوعدوا المماليك ابن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم نادى بأن كل شئ على حكمه، فتخلقت جماعته بالزعفران فى عمائمهم وشق من القاهرة، فتنكد المماليك الجُلبان لذلك وقالوا: قد شمت فينا، وقال المماليك ولم يطلع من أيديهم شئ: وقد تخلق جماعته بالزعفران جكارة فينا والله ما نرجع حتى نقتله. وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان: سلمنا ابن موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شئ فى الأسواق.

وفى يوم الأحد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة، وكانت جنازته حفلة. - وفى أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة، وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع، وكل ذلك من خوفه من المماليك الجلبان.

وفى يوم السبت ثالث عشرة رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة، وقد قبض عليهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب، فرسم السلطان بتوسيطهم فى ذلك اليوم، وكان فيهم شخص يسمى أبو عزراييل وهو كبيرهم، فوسطهم أجمعين. - وفى هذا الشهر أو فى الشهر الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله الولى المعتقد سيدى محمد بن عنان رحمة الله عليه، وكان من أعيان مشايخ الصوفية، وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس. - وفى يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباى أحد الأمراء الطبلخاناه، وهو قريب زوجة الأتابكى قانم التاجر، على ابنة الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين، فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة، قيل اجتمع فيه من المغانى خمسة وعشرون ريسة، ومدوا فيه أسمطة حفلة من الأطعمة الفاخرة، وصنعوا فيه شموعا مزهرة ما بين قصور وشمامات، وكان من المهمات المشهورة.

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض فى مكة على شخص يقال له المعلم أحمد الشامى، وكان أصله من عتالين الزردخاناه، فوجدوا معه مالاً يفتك فيه فى مكة، فلما بلغ أمره للأمير علان قبض عليه، وكان له رفيق فهرب من هناك، فلما دخل أحمد الشامى هذا إلى القاهرة أسفرت القضية على أن أحمد الشامى كان اتفق مع جماعة من معلمين دار الضرب التى كانت بالقلعة وسرقوا من مال السلطان اثنى عشر ألف دينار، وغرمها السلطان للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار

الضرب، فلما حضر أحمد الشامى بين يدى السلطان اعترف بذلك، فسلمه السلطان للوالى يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذى أخذه، ثم إن أحمد الشامى أقر على شخص كان معهم لما أخذوا المال هو كان بالقاهرة مقيما، فلما أقر عليه أحمد الشامى خاف على نفسه من الضرب فأحضر للسلطان أربعة آلاف دينار وقال: هذا هو القدر الذى نابنى من المال ولم يخصنى شئ غير ذلك، فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه فى الحديد حتى يحضر بقية المال، وكان هذا الشخص من معلمين دار الضرب أيضا ممن فعل معهم ذلك، وقد ظهر هذا المال الذى سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعُد ذلك من جملة سعد السلطان.

وفى يوم الخميس خامس عشرينه حضر قاصد من عند ملك الحبشة، أقول أن قُصّاد ملوك الحبشة لها مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر، وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى سنة ست وثمانين وثمانمائة، وفى هذه المدة لم يدخل إلى مصر قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة ومالهم شغل فى مصر؛ فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا قماش كما تقدم للأشرف قايتباى، فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهمندار

وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك، وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القُرصة وفى أيديهم أساور ذهب، وأما القاصد الكبير ذكروا على أنه ابن أمير كبير الحبشة، وقيل إن أباه هو الذى حضر فى دولة الأشرف قايتباى، فكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيهم بعض فصوص، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة، وعليه شاياه حرير ملون، وعلى بقية أعيان أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رءوسهم شدود حرير، وذكروا أن فيهم شخصا شريفا، فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير، وكان معه لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها، وكان صحبتهم البترك الكبير وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب، واصطفت جميع النصارى الذين فى مصرللفرجة عليهم، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة، فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج، والبترك ماش قدامهم فلما وصلوا إلى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا يجلسون عليها بحضرة السلطان فمامكنوهم الرءوس نوب من ذلك ووقع فى أيام الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان. فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبّل الأرض، فلما وصل إلى أوائل

البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة، ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا، فلما قربوا من السلطان قبّلوا الأرض بين يديه ثالث مرة، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب، فلما قرىء على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان، وأن قصّادنا أتوا إلى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك. فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة، فرسم لهم السلطان بأن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان، ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام، فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من الرءوس النوب فوصلوهم إلى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرجموهم، فكان لهم يوم مشهود.

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه، ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكا ما يمكن، وأصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة، وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان. ـ وفيه أخرج السلطان خرجا من مماليكه الغورية ففرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيًا ونشابا، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك. ـ

وفيه أرسل السلطان إلى عبد الرزاق أخى على دولات، وإلى أولاد على دولات الكبار والصغار، ثمانية آلاف دينار، فقسمت بينهم، وأرسل يقول لهم اعملوا بهذه النفقة يرقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة فاجمعوا عساكركم من التركمان إلى أن أحضر أنا والعسكر. - وفيل أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان إلى ثغر الإسكندرية وتمضى فى مراكب إلى هناك، فكانوا نحو مائتى مكحلة، وقد بلغه بأن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجئ على السواحل للديار المصرية.

وفى يوم الخميس خامس عشرينه أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطّالة، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة وهو أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى نصف فضة، وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك، فلما تسلطت ابنه الناصر أعاد هذه المظلمه، فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب غلال ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى وصار يسمى الموجِب، ثم انتقلوا من الغلال إلى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا، فاستمر ذلك مدة طويلة إلى أن ألهم الله تعالى السلطان إلى إبطال ذلك جميعه. -

وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار رديّة بسبب ابن عثمان، فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يضربون مشورة فى أمر ابن عثمان. - وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر أشهر السلطان

المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ثانى صفر، وأن لا يتأخر عن العرض أحد من العسكر من كبير ولا صغير، فاضطربت لذلك أحوال العسكر قاطبة.

صفر ٩٢٢

وفى صفر كان مستهل الشهر يوم الأربعاء، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر، فقال السلطان للخليفة لما جلس: اعمل يرقك إلى السفر وكن على يقظة فإنى مسافر إلى حلب بسبب ابن عثمان. وقال للقضاة الأربعة مثل ذلك: اعملوا يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى. فقالوا: المرسوم مرسومك. -

ومن الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم أن السلطان أمر بإبطال المشاهرة والمجامعة التى كانت على الحسبة، وأشهر المناداة فى مصر والقاهرة بذلك وأن مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال بطّال، فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان، ونقّطت الناس المشاعلية بالفضة الذين بشروا بذلك، وكان يوما مشهودا،

وكانت هذه المشاهير من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين، فإن الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبره بأن يجعل على السوقة كل شهر مالاً يردونه للمحتسب، فتزايد الأمر إلى أن صار مقرر على السوقة فى كل شهر فوق الألفى دينار ترد للخزائن الشريفة، فكان الزينى بركات بن موسى

المحتسب يرد فى كل سنة للخزائن الشريفة من المشاهرة والمجامعة نحو ستة وسبعين ألف دينار من هذه الجهة وغيرها من الجهات التى متكلم عليها الزينى بركات بن موسى، وكان جماعة من الأمراء الذين بغير أقاطيع محقا له فى كل شهر على الزينى بركات بن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة، فكانت السوقة تجور فى أسعارالبضائع ولا يجسر من الناس أحد يكلمهم فيقولون: علينا مال السلطان نورده فى كل شهر. فاستمر ذلك من أول دولة السلطان إلى الآن، ألهم الله تعالى السلطان إلى إبطال ذلك. - وفيه وجد مملوك من مماليك السلطان مقتولا بباب الوزير، وكان ذلك المملوك من مماليك السلطان من جلبانه، وكان مسارعا، فلا يعلم من قتله، فتنكد المماليك بسببه. - وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض، ولم يعد الزينى بركات بن موسى إلى الحسبة، فنزل من القلعة فى موكب حفل وصحبته الأمير طومان باى الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة، واستمرت الحسبة شاغرة إلى الآن لم يل بها أحد.

وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل إلى الميدان، ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب القرافة وتوجه من هناك إلى الروضة وعدّى إلى المقياس وأقام به ذلك اليوم، وأشيع أن السلطان يتوجه من هناك إلى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذى هناك انقلب من الماء، وقد توجه الأمير طومان باى الدوادار والأمير أرزمك الناشف إلى هناك

قبل ذلك وكشفوا عن أمر هذا الجسر، فقدروا بأن يتصرف على عمارته ثلاثين ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، فلم يكتف السلطان بهذه الأخبار وتوجه إلى هناك بنفسه ليكشف عن أمر هذا الجسر.

فأقام فى المقياس يوم الجمعة وصلى هناك صلاة الجمعة ثم عدّى إلى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام، فقام ذلك اليوم هناك ثم توجه إلى الفيوم من تحت الجبل.

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين الجلبى بسبب ما تقدم فاستمر علم الدين ممنوعا من طلوعه للقلعة، فقال السلطان لمحمد المهتار: ابصر لنا جلبى يحلق رأسى، فأعرض عليه عدة جلبية فما أعجبه منهم أحد، فقال له محمد المهتار: عندنا صبى صغير أمرد يسمى عبد الرازق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الخدام وهو يحلق مليح، فقال السلطان: احضره حتى يحلق لى، فلما حلق له أعجبه حلاقته فاستقر به جلبى السلطان عوضا عن علم الدين، فسافر هذا الصبى صحبة السلطان إلى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حفلة يلبسها وأخرج له إكديشا وبغلة وصار جلبى السلطان فى ساعة واحدة، وإذا أعطى لا منع والله عند القلوب المنكسرة جابر، فعد ذلك من النوادر، والعبد بسعده لا بأبيه ولا بجده وقيل فى الأمثال: فى الناس من تسعده الأقدار وفعله جميعه إدبار.

وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساعٍ، وقيل اثنان، من عند نائب حلب، وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة

على أيديهما، فلما قُرئت على السلطان فإذا فيها أن شاه إسمعيل الصوفى ملك العراقين جمع من العساكر مالا يحصى عددهم وهو زاحف على بلاد ابن عثمان، وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وقعة مهولة، وانكسر منه شاه إسمعيل الصوفى، فاستمر الصوفى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بملوك التتار، فقيل إنه جمع الجم الغفير من العساكر فإن ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الوقعة المقدم ذكرها، فلما راج أمر الصوفى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان فقيل إنه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد ملكها من يد الصوفى، فلما تحارب معه وانكسر الصوفى فجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله، فأشيع أن الصوفى كبس على من كان بآمد على حين غفلة وقتل من كان بها من العثمانية واستخلصها من يدى جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم، فلما طرق السلطان هذا الخبر اجتمع بالأمراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب مشورة بسبب ذلك إلى قريب الظهر، وقد أشيع بأن السلطان قال: أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا، فانفض المجلس على أن لابد من خروج تجريدة تقيم بحلب ويحرسون البلاد، وأشيع فى ذلك اليوم بإحضار الكشاف ومشايخ العربان وألزمهم بأن يشرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير من فرسان العرب

ويوزعوا ذلك على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد، وهذا أكبر أسباب الفساد فى حق الجند والمقطعين فإن الكشاف ومشايخ العربان يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة أمثال لأنفسهم، والأمر فى ذلك لله تعالى.

ربيع الأول ٩٢٢

وفى ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين بن النقيب رحمة الله عليه، وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى، وكان يقرب للخواجا شمس الدين ابن قضا الجوهرى، وكان من أهل العلم والفضل لكنه كان بجاقى النفس وينسب إلى شح زائد، ولع فى ذلك الأمر أخبار شنيعة لم نذكرها هنا لكنها شائعة بين الناس، ومات وقد ناف عن السبعين سنة من العمر وقارب الثمانين، وكان سبب موته أنه كان كثير المشى فى الأسواق بقبقاب سحك، فتوجه إلى خان الخليلى فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر فحملوه إلى خلوته التى بالمدرسة المنصورية فأقام أياما ومات، وكان منفصلاً عن القضاء، وقد ولى منصب القضاء ست مرات ونفذ منه فى هذه الست ولايات ستة وثلاثين ألف دينار، وكانت مدة إقامته فى هذه الست ولايات نحو سنتين، وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة، وكان يسعى على القضاة المتوليين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاء، فعزل به قاضى القضاة زين الدين زكريا وقاضى القضاة ابن أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندى وقاضى القضاة كمال الدين

الطويل وبدر الذين المكينى وعلاى الدين بن النقيب، وكان يسعى عليهم بجملة مال ولا يقيم فى منصب القضاء غير أشهر ويعزل، فنفذ منه هذه الأموال الجزيلة ولم يمكث فى كل ولاية غير أشهر ويُعزل، وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة:

منصب الحكم فى القضا قال لما ... كشف الله ما به من هموم
زال عنى ابن النقيب وإنى ... كنت معه فى قبضة الترسيم

ويقال إنه كان متحصل ابن النقيب فى كل يوم من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك، فكان يحرم نفسه من المأكل والمشرب والملبوس ويحصل المال ويسعى به فى وظيفة القضاء ولا يمكث فيها إلا القليل.

وفى يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان إلى البلاد الشامية فأرسل يقول له: يامولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع فى الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر إلى حلب- وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على مملوكه الأمير ماماى الصغير، وقرره فى نظر الحسبة الشريفة، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله إلى أستادارية الذخيرة، فكانت مدة إقامة الزينى بركات بن موسى فى الحسبة إحدى عشرة سنة إلا أشهر

وعُزل والناس عنه راضية، وقيل إن الأمير ماماى الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها، وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين فى هذا الزمان إلى الغاية وصارتا من أجلّ الوظائف، وهذه الأموال العظيمة التى سعوا بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله.

وفى يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصايغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة، وكان له مدة وهو مختف فظهر فى ذلك اليوم وقابل السلطان، ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى.

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس نفق السلطان على العسكر بقية النفقة. - وفى يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ونادى لهم فى الحوش أن السفر أول الشهر، فاضطرب أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان، وغلقت أسواق القماش من المماليك واختفى الصنايعية والخياطون واضطربت أحوال القاهرة، واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك، واختفى طائفة

من الغلمان لأجل السفر، وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول: روحى روحى.

وقد أعاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى بيقع منه، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر، ولم يكن أمر يستحق لهذا الرهج العظيم، ولا جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل إلى حلب، ولا جاليشه، ولا تحرك من بلاده، وقد أعاب على السلطان أيضا عرضه لعسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ونفق عليهم مع العرض فخشوا أن يشاع هذا الخبر فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصوفى أن السلطان قد عرض عساكره فى أربعة أيام فينسبونهم إلى قلة وأن ما تم بمصر عساكر، وربما يطمع العدو إذا سمع ذلك وما كان هذا عين الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة.

ربيع الآخر ٩٢٢ هـ

وفى يوم الأحد ثانية فرّق السلطان على مماليكه الجلبان لبوس خيل حـ رير ملون وخوذ وأتراس وبذلات ما بين زنود وركب فولاذ و ـير ذلك من آلة السلاح التى فى الزردخاناه، فتزاحمت ـ ليه المماليك وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم، ولا يرضون بالذى يفرقه السلطان لهم فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم، وقد زاد تنمردهم فى هذه الأيام إلى الغاية. ـ أعجوبة: قيل إن فى يوم الاثنين ثالثه أحضر بين يدى السلطان امرأة ولدت مولوداً له رأسان فى حقو واحد وله أربع أيدى وأربع أرجل، فلما شاهدها السلطان تعجب من ذلك، وقد وقع مثل ذلك فى زمن الإمام علىّ رضى الله عنه.

ومن جملة إنعام اللع تعالى على المسلمين أن السلطان أبطل تلك العربان الذين كان أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد، وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب، فأحضر مشايخ العربان والكشاف وأفرد عليهم نحو خمسة آلاف خيال، فنزلوا إلى البلاد قاطبة وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربعة خيالة بمائتى دينار، فلما سمعوا أهل النواحى من الفلاحين بذلك أخلوا من البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة، فلما بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك وعلى أن غالب البلاد خرب وأخلا منها الفلاحون، وأغلظوا الأمراء على السلطان فى القول، وقالوا له: نحن نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسد ديننا إذا سافرنا؟ فاستحى منهم السلطان وأمر بإبطال ذلك، وأخرج مراسيم شريفة إلى الكشاف ومشايخ العربان بإبطال ما كان رسم به فى الأول وإعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحى، فخرجت المراسيم الشريفة إلى البلاد بمنع ذلك، ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد فلله الحمد على ذلك.

وقد حُكى عن الظاهر برقوق لما جرّد إلى تمرلنك خرج طُلبه ينسحب من باب الميدان، وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى يده طبر، وصار يكر بالفرس

من باب الميدان إلى رأس الصوة. ومنها أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون إلى البلاد الشامية عندما تنقل الشمس إلى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب، وأما الغورى فإنه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان، فحصل للعسكر مشقة فى الطريق. وأما من العادة القديمة أن السلاطين كانت تخرج من بين الترب عند خروجهم إلى البلاد الشامية ولا يشقون من القاهرة إلا عند عودهم، وكان السلطان الغورى لا يقتدى إلا برأى نفسه فى جميع الأمور.

وفى يوم الخميس ثالث عشرة أشيع بين الناس أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان يقال له جانم الإفرنجى، وكان مجرما عايقا مسرفا على نفسه، فبلغ السلطان أنه لما خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان فصار جانم هذا يخطف كل شئ لاح له ويؤذى الناس بطول الطريق، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة إلى أرباب الإدراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجد، فقيل إنهم قبضوا ء يه وشنقوه على شجرة فى بلبيس وهو بقماشه بسيفه وتركاشه، ووضعوا غلمانه فى الحديد إلى أن أتوا بهم إلى المقشرة. - وفى يوم الجمعة رابع عشرة نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى القرافة وزار قبر الإمام الشافعى والإمام الليث رضى الله عنهما، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير، وقيل تصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له جرم. - وفى ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه إلى الريدانية، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم فى ذلك اليوم.

فلمـا كـان يوم السـبت خـامس عـشـر ربيع الآخـر خـرج السلطان الملك الأشـرف أبو النصر قانصـوه الغورى عزّ نصـره قاصـدا نحـو البـلاد الشـامـيـة والحلبيـة. وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج إلى البلادالشامية على هذا الوجه من حين.

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب بأن ابن عثمان أرسل قاصدا إلى حلب، فعوقه نائب (حلب) عنده وأخذ منه كتـاب ابن عـثمـان وأرسله إلى السلطان، فـوصل إليـه وهـو بالمخـيم بالريدانيـة، فلمـا فـضّـه السلطان وقـرأه فـإذا فـيه عبارة حسنة وألفـاظ رقيـقة منها أنه أرسل يقول له: أنت والدى وأسـألك الدعـاء وإنى ما زحـفت على بلاد علـى دولات إلا بإذنك وأنه كـان باغـيـا علـى وهـو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما مـا جرى وهذا كـان غاية الفسـاد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب، وأمـا ابن سوار الذى ولى مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فـالأمر راجع إليكم فى ذلك، وأما التـجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإنى ما منعتهم إنما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فـامتنعوا من جلب المـماليك إليكم، وإن البـلاد الذى أخـذتهـا من على دولات أعـيدهـا لكم وجـمـيـع مـا يرومـه السلطان فـعلناه. فلمـا سـمـع السلطان ذلك أحضـر الأمـراء المقدمين وقـرأ عليـهم كـتـاب ابن عثمـان الذى حضـر فـانشرح السلطان والأمراء لهـذا الخبـر واستـبشـروا بأمـر الصلح والعود إلى الأوطان عن قـريب، وكـان هذا كله حيلا وخداعا من ابن عثمـان حتى يبلغ بذلك مقـاصـده

وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد. ـ وفى عقيب ذلك حضر الأمير أينال باى دوادار سكين الذى كان توجه إلى حلب بسبب كشف أخبار ابن عثمان، فلما حضر وجد السلطان قد برّز خامه إلى السفر وخرج من القاهرة، فأخبر أن قاصد بن عثمان قد وصل إلى حلب وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان فقدم أينال باى للسلطان هناك تقدمة حافلة. ـ وقيل فى ليلة رحيل السلطان من الوطاق بالريدانية أحضروا مشاعل موقدة فطار منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق منها جانب، فلم تتفاءل الناس بذلك.

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية أخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة إلى أن يحضر وأخلع على القاضى بركات بن موسى و قرره فى الحسبة عوضا عن الأمير ماماى إلى أن يحضر، وجعل الزينى بركات بن موسى متحدثا فى جميع جهات السلطنة إلى أن يحضر السلطان، فتضاعفت عظمة الزينى بركات إلى الغاية وصار فى مقام نظام الملك وهو المتصرف فى أمور المملكة، والأمير الدوادار معه كاللولب يدوره كيف شاء، وأخلع على الأمير ألماس والى القاهرة وأقرّه فى الولاية وأوصاه بحفظ القاهرة وعدم الظلم، وأخلع على الأمير ماماى المحتسب ورسم له بالسفر معه إلى حلب. فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه المشاعلية تنادى بالأمان والاطمان والبيع والشرى وأن أحدا لا يمشى من بعد العشاء

بسلاح، وأن لا مملوكا ولا غلاما يشوش على متسبب وأن من كان له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الأمير الدوادار، فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء، وما حصل للناس منه فى غيبة السلطان إلا كل خير، وكان الأمير الدوادار محببا للرعية قليل الأذى فى حق الناس، فلما شق من الصليبة شق فى موكب حفل وقدامه السعاة والنفطية والسقايين والجم الغفير من المماليك السلطانية فتوجه إلى داره فى ذلك الموكب.

وفى يوم السبت ثانى عشرين ربيع الآخر رحل السلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المقرّ الناصرى أمير آخور كبير وأقباى الطويل أمير آخور ثانى، فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه إلى خانقة سرياقوس، فكانت مدة إقامته فى الوطاق بالريدانية سبعة أيام. فلما توجه إلى خانقة سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشرينه. - وفى يوم الاثنين رابع عشرينه فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذى تأخر بمصر، فجلس الأمير طقطباى عند سلم المدرج ونُفقت الجامكية بحضرته، وهذه أول جامكية نُفقت فى غيبة السلطان. - وفى ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمراء المقدمين الذين عينهم السلطان إلى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد من فساد العربان، فتوجه الأمير تانى بك النجمى إلى نحو الشرقية، والأمير أزبك المكحل إلى نحو الغربية والأمير قانصوه الفاجر إلى المنوفية، والأمير قانصوه أو سنّة إلى البحيرة، والأمير

يخشباى كان مسافرا إلى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك، ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة بأن المماليك السلطانية المتعينين إلى الشرقية والغربية يخرجون صحبة الأمراء الذين سافروا فلا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك المعينة إلى السفر، فامتثلواذلك.

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه جاءت الأخبار من عند السلطان أنه لما رحل من الخانكاه وجُد فى وطاقه شخص من الساسة زعموا أنه فداوى أرسله علم الدين جلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ذكر ذلك، فزعموا أعداء علم الدين أنه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى عبد الرازق الذى صار جلبى السلطان عوضا عن علم الدين، فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى وأحضروه بين يدى السلطان فقرره فأنكر فرسم بشنقه. ثم إن السلطان أرسل يقول للأمير الماس والى القاهرة بأن يكبس على علم الدين الجلبى وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على باب داره، فلما بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من داره، ثم إن الوالى قبض على جماعة من الساسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد، فأشيع أنهم سجنوهم فى المقشرة إلى أن يحضر السلطان. وكان قبل ذلك حُرق للسلطان والأمراء عدة شون دريس فى الحسينة بنحو ألفى دينار، فنسبوا أن ذلك من فعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الجلبى، وإذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها، واستمر الطلب الحثيث على علم الدين الجلبى إلى أن يظفروا به، فقيل إن الوالى لما هرب علم الدين

أرسل مماليكة باللبس الكامل إلى ناى وطنان فى طلب علم الدين فلم يظفروا به.

جمادى الأولى ٩٢٢ هـ

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد يشترى قمحا من مركب على شاطئ البحر، فلما اشترى ذلك القمح لم يجد تراسا يحمله فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكيبة، فأخذ ذلك المملوك الحمار والزكيبة من ذلك الرجل فلم يعطه الرجل الحمار، فضربه ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه، فألقى الرجل نفسه فى البحر فأغمى عليه فمات، فعند ذلك تكاثرت الناس على ذلك المملوك ومسكوه وأتوا به إلى بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة، فوضعه فى الحديد وأرسله إلى الوالى ليسجنه إلى أن يحضر السلطان، فلما بلغ خشداشينه ذلك أتوا إلى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده، فقيل للمماليك إن ذلك المملوك الذى قتل قد سلمه الأمير الدوادار إلى الوالى، فعند ذلك نزل من الطباق الجم الغفير من المماليك الجلبان وتوجهوا إلى بيت الوالى وخلصوا ذلك المملوك الذى قتل الفلاح وقصدوا أن يحرقوا بين الوالى وينهبوه، فتغافل الأمير الدوادار عن أمر ذلك القتل وراحت على من راح.

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية، وكان ساكنا بالقلعة فى خرائب التتار، وكان متهما بالمال وعنده ودائع من

جوامك المماليك، فنزل عليه الحرامية وهو راقد فى بيته وضربوه على رأسه بالمجُلبات حتى أشيع أنه قد مات، وأخذوا كل ما فى بيته، وقتلوا عبده وجاريته، ولم تنتطح فى ذاك شاتان، حتى تحير الأمير طقطباى نائب القلعة فى هذه الواقعة كيف جرت فى وسط القلعة والأبواب تغلق من بعد المغرب، فَعُدّ ذلك من العجائب..

ثم وردت الأخبار بأن السلطان دخل إلى مدينة غزة المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الأولى فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة حافلة، فشق السلطان مدينة غزة فى موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة، فقيل أقام بغزة خمسة أيام ورحل عنها. وأشيع أن السلطان لما كان بغزة أخلع على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة وقرره معلم المعلمين، عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها، وكان هذا من غلطات الزمان فى تولية الوظائف إلى غير أهلها.

جمادى الآخرة ٩٢٢

وفى هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل إلى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الأولى فلاقاه سيباى نائب الشام، ولاقاه سيباى نائب الشام من المنية وبركة طبرية على ماقيل من الأخبار، ودخل فى موكب حافل وعسكر بالشاش والقماش وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات وأرباب

الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العسكر، ولاقاه أمراء الشام وعساكرها، وحمل على رأسه ملك الأمراء سيباى نائب الشام القبة والجلالة كما جرت بذلك العوايد من قديم الزمان، فزينت له مدينة دمشق زينة حافلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق، ونثر على رأسه بعض تجار الفرنج الذى هناك ذهبا وفضه، وفرش له سيباى نائب الشام تحت حافر فرسه الشقق الحرير، فتزاحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه، فمنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق تحت حافر فرسه. ولما دخل إلى دمشق نثر على رأسه القنصل وتجار الفرنج دنانير ذهب، ونثر المعلم صدقة اليهودى معلم دار الضرب بالشام فضة جديدة، وفُرشت له الشقق من مدرسة النائب بها الآن، وزُينت له المدينة سبعة أيام، فكان له بدمشق يوم مشهود، وعُد ذلك من المواكب المشهودة، فاستمر فى هذا الموكب الحافل حتى دخل من باب النصر الذى بدمشق وخرج إلى الفضاء منها وتوجه إلى المصطبة التى يقال لها مصطبة السلطان، وهى بالقابون الفوقانى، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وكانت قد تشعثت من قدم السنين، وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف بُرسباى لما توجه إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى للملك الأشرف قانصوه الغورى.

وفى يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير الدوادار وكان قد توجه إلى الفيوم ليكشف على الجسر الذى عمره الأمير

يخشباى هناك، فكشف عليه وعاد بعد أيام وفى مدة غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب كل يوم ومعه الأمراء والعسكر الذين بمصر فيسير إلى نحو المطرية وبركة الحاج، فإذا رجع يدخل من باب النصر وقدامه الجم الغفير من الأمراء والعسكر، وكل هذا لأجل العرب والفلاحين حتى لا يطمعوا ويقولوا إن ما بقى فى مصر عسكر، وكان هذا من الآراء الحسنة. وفيه تقلقت الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت البضائع تباع بسعرين، ووصل صرف النصف الفضة بالفلوس إلى ستة عشر درهما من الفلوس، وكانت الفلوس الجدد تصرف معاددة وهى فى غاية الخفّة فتضرر الناس لذلك، فغلقت الدكاكين بسبب ذلك، وتشحّط الخبز وسائر البضائع، وكادت أن تنتشى من ذلك غلوة.

رجب ٩٢٢ هـ

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل إلى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة، وكان لدخوله يوم مشهود، وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء، كموكبه بالشام، وحمل القبة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام. وفى حال دخول السلطان إلى حلب وصل إليها قُصّاد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فقيل إن ابن عثمان أرسل إليه قاضى عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين، وأحد أمرائه يقال له قراجا باشاه، وصحبتهم سبعمائة عليقة، فنزلوا بمدينة حلب. وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين

يديه قاضى ابن عثمان وقراجا باشاه شرع يعتبهم فى أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه فى حقه وأخذه إلى بلاد على دولات، فقال له قاضى ابن عثمان وقراجا باشاه: نحن فوّض لنا أستاذنا الأمر وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى. وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد. ومن جملة مخادعه ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكرا وحلوى فى علب كبار، وكل ذلك حيل منه. ثم إن قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى عن علماء بلادهم وقد أفتوا بقتل شاه إسمعيل الصوفى وأن قتاله جائز فى الشرع، وأرسل يقول فى كتابه: السلطان والدى وأسأله الدعاء لكن لا يدخل بينى وبين الصوفى فإنى ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض فلا تدخل بيننا بشئ من أمر الصلح.

ثم وردت الأخبار إلى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذى جهزه إلى ابن عثمان، وهو مغلباى أحد الدوادارية السكين، ووضعه فى الحديد. وكان السلطان جهز الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة إلى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار، وأخلع على قاضى عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشاه الدي تقدم ذكر حضورهما الى حلب خلعا سنيّة بطرز يلبغاوى عراض، وأذن لهم بالعود إلى بلادهم، وكان هذا عين الغلط من السلطان الذى أطلق قصاد ابن عثمان

قبل أن يحضر مغلباى دوادار سكين ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه، فلما وصل الأمير كرتباى عينتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح وأنه بهدل مغلباى ووضعه فى الحديد وقصد شنقه حتى شفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحها، فلما تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عينتاب فهرب نائبها، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع، فلما وصل كرتباى بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة.

ثم إن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال الباغى ابن عثمان، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون إلى القتال، والذى يريده الله تعالى هو الذى يكون.

شعبان ٩٢٢ هـ

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار، وماذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرّد من عند الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين، فذكر فيه أن السلطان كان يكذّب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدّق إلى أن حضر مغلباى دوادار

سكين وهو فى حال النحس، بزمط أقرع على رأسه، وهو لابس كبر عتيق دنس، وراكب على إكديش هزيل، وقد نُهب بركه وأخذت خيوله وقماشه، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقال له: قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق، وأخبر أنه وضعه فى الحديد وقصد أن يحلق لحيته وقدّمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه، وحمّله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدلة ما لا خير فيه. فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان، فقيل إنه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش وبرك فى نظير ما ذهب له.

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلّى الظهر وركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وكان تقدّمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجّت لهم حلب، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها. ـ فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان فصلى السلطان صلاة الصبح ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار، وقيل هناك مشهد نبى الله داود عليه السلام، فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر، وصار يرتب

العساكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن ميمنته وهو بتخفيفة وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان، وعلى رأسه الصنجق الخليفتي. وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس حرير أصفر على رءوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه. وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم: خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفتى، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود، وكان الصبى قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفا بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وكان الصنجق السلطانى واقفا خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب.

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق، فهمّ ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكانت النصرة لعسكر مصر أولا، ويا ليت لو تم ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال

لماليكه الجلبان: لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة، وقُتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام، فانهزم من في الميمنة من العسكر. ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قُتل، ويقال إن خاير بك نائب حلب كان موالسا على السلطان في الباطن، وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة.

وكان ذلك خذلانا من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر، فصار السلطان واقفا تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك، فشرع يستغيث للعسكر: يا أغوات هذا وقت المروّة قاتلوا وعليّ رضاكم. فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شئ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم: ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر، فانطلق في قلبه جمرة نار لاتطفى، وكان ذلك اليوم شديد الحر، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضا، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغُلّتَ أيديهم عن القتال، وقد قلت في هذه الواقعة:

لما التقى الجيشان مع سلطاننا	في مرج دابق قال: هل من مسعف
فله أجاب لسان حال قائلا	عرضْتَ نفسك للبلا فاستهدف

واشتد بالجلبان رعب قلوبهم	وغدوا يقولوا أى أرض نختفى
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم	حتى أتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال، وتزايدت الأهوال، فخاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم إلى السلطان وقال له: يامولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب. فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج أبطل شقته وأرخى حنكه، فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة ذهب، فشرب منه قليلا وألْفت فرسه على أنه يهرب، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهرة، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته، على ماقيل من هذه الإشاعة. فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله.

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر، ولا وقف له أحد على أثر، ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته فى الحال، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر، فداسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول،

وفُقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء، ووقع النهب فى عسكر مصر، وزال مُلك الأشرف الغورى على لمح البصر فكأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير، بعد ما تصرف فى مُلك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فإنه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك، وقد قلت فى المعنى:

اعجبوا للأشرف الغورى الذى	مذ تزايد ظُلمه فى القاهره
زال عنه مُلكه فى ساعة	خسر الدنيا إذاً والآخره

وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر، وانتهى الحال على أمر قدّره الله تعالى، فقُتل فى تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالا يحصى عدده، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم: الأتابكى سودون العجمى وبيبرس قريب السلطان وأقباى الطويل، وأسر قانصوه بن سلطان جركس وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طبلخانات وعشرات وخاصكية، وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل، فإنهم لم يقاتلوا فى هذه الوقعة

شيئا، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة، وقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى ضبطه. وقتل من أمراء مصر ومات تحت صنجقه فى يوم الحرب، وانكسر على هذا الوجه أبدا، ولا سمع بمثل ذلك، ونهب ماله وبركه بيد عدوه، غير قانصوه الغورى، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا. وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف، فردت عليه أعمالهم ونياتهم وسلط الله تعالى عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ماجرى، فكان كما قيل فى المعنى:

أين الملوك الذى فى الأرض قد ظلموا ... والله منهم لقد أخلى أماكنهم
فاستغنِ بالسمع عن مرآهم عظةً ... فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم

ثم إن ابن عثمان تحول عن مرج دابق ودخل إلى حلب فملكها من غير مانع، فنزل بالميدان الذى بها فى مكان كان به السلطان، وهذا ما انتهى إلينا من ملخص هذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ومن نقصان، فهذا ما كان من أمر السلطان وابن عثمان. وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فإنهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول بها، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم وودائعهم التى كانت بحلب، وجرى عليهم من أهل حلب مالا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان، وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا

قبل ذلك صحبة قانى باى أمير آخور كبير، فنزلوا فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر لأهل حلب، فما صدقوا أهل حلب بهذه الكسرة التى وقعت لهم فأخذوا بثأرهم منهم. فلما رأوا الأمراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا إلى دمشق، فدخلوها وهم فى أنحس حال لا برك ولا قماش ولا خيول، ودخل غالب العسكر إلى الشام بعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل، وبعضهم عربان وعليه عباءة أو بشت، ولم يقع لعسكر مصر كاينة قط أعظم من هذه الكاينة، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر فى الشام حتى يتكاملوا البقية ويظهر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميرا. وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى، وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه، فكانت ساعة يشيب منها الوليد، ويذوب لسطوتها الحديد، فصار فى مرج دابق جثث مرمية وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها، وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك، وقال بعض المواليا فى المعنى:

صفَقْ جوادى وقد جسّيتُ يوم الحرب ... عودى فغنّت صوارم شرقها والغربْ

طربت عادت تمقط فى سماع الحرب ... روس الأعادى وترقصْ داخله فى الضربْ

ثم إن ابن عثمان زحف بعسكره وأتى إلى وطاق السلطان ونزل فى خيامه وجلس فى المدورة، واحتوى على الطشتخاناه وما فيها من القماش، وعلى الشراب خاناه وما فيها من الأوانى الفاخرة، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح، وعلى خزائن المال والتحف، ونزل كل أمير من أمرائه فى وطاق أمير من أمراء السلطان واحتووا على ما فيها، فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميرا مقدم ألف، خارجا عن الأمراء الطبلخانات والعشرات والعسكر، وكذلك عسكره احتوى على خيام العسكر المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك من العساكر، كما يقال: مصائب قوم عند قوم فوائد.

ولم يقع قط لملوك بنى عثمان أخت هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة، بل إن تيمورلنك زحف على بلاد بنى عثمان وحارب أحد أجدادهم، وهو شخص يقال له يلدرم، فلما حاربه انكسر فأسره تيمور ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد العجم، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع له فص ماس فمات وهو فى ذلك القفص الحديد. ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر أنه وقع له مثل هذه الكاينة، السالم من العاطب، وقيل إن الأمراء لما دخلوا إلى الشام صاروا فى حر الشمس لم يجدوا ما يستظلون به حتى صنعوا لهم الغلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون تحتها.

وأما ما كان من أمر سليم شاه بن عثمان بعد أن ملك حلب، فالذى استفاض بين الناس أن ابن عثمان أقام بالميدان الذى بحلب فتوجه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله، والقضاة

الثلاثة وهم: قاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى، وأما قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة فإنه هرب مع العسكر وتوجه إلى الشام، ونهب جميع بركه وقماشه، ودخل إلى الشام فى أنحس حال. - وقيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان قام له وعظمه وأجله وجلس بين يديه فأشيع أنه قال له: أصلكم من أين، قال له: من بغداد، فقال له ابن عثمان: نعيدكم إلى بغداد كما كنتم، والأقوال فى ذلك كثيرة. فلما أراد الخليفة الانصراف أخلع عليه دُلامه حرير من ملابيسه، وأنعم عليه بمال له صورة ورده إلى حلب ووكل به أن لا يهرب من حلب وقيل لما دخل عليه قضاة القضاة وبّخهم بالكلام وقال لهم: إنتوا تأخذوا الرشوة على الأحكام الشرعية وتسعوا بالمال حتى تتولوا القضاء، ليش ماكنتوا تمنعوا سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها بالناس. وأشاعوا من هذه أخبار العجايب والغرايب، والمعول فى ذلك على الصحة.

وأخبرنى من رأى سليم شاه بن عثمان أنه مربوع القامة، واسع الصدر، أقنص العنق، مكرفس الأكتاف، فى ظهره جنّيه، مترك الوجه، واسع العينين، ذرية اللون، وافر الأنف، ملئ الجسد، حليق اللحية ليس غير الشوارب، كبير الرأس، عمامته صغيرة دون عمايم أمرائه. فلما ملك حلب سلموه أهلها المدينة بالأمان وهرب قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب وتوجه إلى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل إليها شخصا من جماعته، وهو أعرج أجرود وفى يده دبوس خشب. فطلع إلى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا

يرده، فختم على الحواصل التى بها واحتوى على مافيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك. وقد فعل ابن عثمان أباحة أنه أخذ قلعة حلب بما فيها بشخص أعرج وفى يده دبوس خشب وهو أضعف من فى عسكره، وقيل فى المعنى:

لا تحقرنّ ضعيفاً فى مخاصمةٍ　　　إن النبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على حلب لم يدخل مدينتها غير ثلاث مرات المرة الأولى دخلها وطلع إلى القلعة بسبب عرض حواصلها، فلما عرضها رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف، فاحتوى على ما كان من المال نحو مائة ألف ألف دينار، والكنابيش الزركش وأرقاب الزركش والقبة والطير والسروج الذهب والبلور والطبول بازات المينة واللجم المرصعة بالفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ والمخمل الملون والسيوف المسقطة بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح، فرأى مالا قط رآه ولا فرح به أحد من أجداده ولا أحد من ملوك الروم، والذى جمعه الغورى من الأموال من وجوه المظالم والتحف التى أخرجها الغورى من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك بنى أيوب الأكراد وغيرها ومن ملوك الترك والجراكسة، احتوى عليها سليم شاه بن عثمان من غير تعب ولا شقى، هذا خارجا عن ما كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه. وقيل إنه

ملك ثلاث عشرة قلعة من معاملة بلاد السلطان، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك من التحف. فكان الذى ظفر به سليم شاه بن عثمان فى هذه السنة من الأموال والسلاح مالا ينحصر ولا يضبط، واحتوى على خيول وبغال وجمال مالا يحصى عددهم، واحتوى على خيام وبرك، ولا سيما ما كان مع السلطان والأمراء والعسكر، وقد قُسم له ذلك من القدم، كما يقال فى المعنى:

ألا إنما الأقسام تحرم ساهرا   وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة فى جامع الأطروش الذى بحلب، وخُطب باسمه ودُعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها، ولما صلى بها صلاة الجمعة زينت له مدينة حلب ووقد له الشموع على الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء، والتف عليه الخواجا إبراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى، وكانوا هؤلاء من أخصاء الغورى، وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار الملكة، فلما فُقد السلطان أظهروا عين المحبة لابن عثمان، وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أفعاله الشنيعة إلى ابن عثمان، وصاروا من جماعته ونسيوا إحسان الغورى لهم، كما يقال فى المعنى:

لقاء أكثر من يلقاك أوزار   فلا تبال أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهن أو عار   وفعلهم منكر للمرء أو عار

لهم لديك إذ جاءوك أوطار   إذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن وهو خاير بك نائب حلب، فإنه أول من كسر عسكر السلطان هو، وهرب عن ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه إلى حماة، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة أمرائه، ولبس زىّ التراكمة العمامة المدوّرة والدلامة، وقصّص ذقنه، وسماه ابن عثمان خاين بك، كون أنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك، فلما جرى ذلك تسحّبت مماليك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان. وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هلاكو، ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقرّبين عند هلاكو، ثم أقلب عليه وقتله وصلبه وقال له: أنت ماكان فى وجهك خير لأستاذك يكون فى وجهك خير لى، وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك.

ومن هنا نرجع إلى أخبار القاهرة بعد هذه الحركة، فإن لما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من أمر هذه الوقعة وقتل الأمراء، فقام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب، وكان يعرف بسودون من جانى بك، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى وولى عدّة وظائف سنية، منها أمرية مجلس وأمرية السلاح والأتابكية، وأظهر الفروسية فى هذه الوقعة، واستمر يقاتل حتى قتل من على ظهر فرسه رحمة الله عليه. فقام نعى

السلطان فى ذلك اليوم، ونعىَ الأمراء الذين قتلوا فى هذه الوقعة، وصار فى كل حارة نعى بسبب من قتل من العسكر، ورجت القاهرة فى ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقيل بالقاهرة.

وفى يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعايم نهبوا ضياع الشرقية، وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس من الغنم منها للسلطان والدوادار، ودخلوا وادى العباسة، فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج إليهم وصحبته خمسمائة مملوك وكبس عليهم، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشى والغلال وغير ذلك، فرجع الأمير الدوادار إلى داره. - وفيه أخلع الأمير الدوادار على الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وأشهر النداء بالأمان والأطمان وأن المشاهرة والمجامعة بطالة وجميع المظالم الحادثة بطالة، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتمى أحد عليه، وقد تضاعفت حرمته وتنافذت كلمته فوق ما كان واجتمع معه عدّة وظائف سنية، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد. - وفى يوم الاثنين ثامن عشرة نفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذى بالقاهرة، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ونفق الجامكية هناك، والإشاعات قائمة بموت السلطان والأحوال مضطربة.

وفيه رسم الأمير الدوادار بعرض من فى السجون حتى النساء التى بالحجرة، فلما عرضهم أفرج عن جماعة كثيرة منهم: جانى بك دوادار الأمير طراباى وكان له مدة وهو فى المقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان متحدثا فى نظر الديوان المفرد، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان له مدة وهو فى المقشرة على مال من بقايا مصادرة، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين، وأفرج عن صلاح الدين بن كاتب غريب بن أخى أبى الفضل، وأفرج عن المعلم شنشوا الذى كان يهوديا وأسلم وأفرج عن المعلم يعقوب الصغير اليهودى معلم دار الضرب، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين والأعيان ممن كانوا فى السجون، وأفرج عن النساء التى كانوا بالحجرة، ولم يبق فى السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم، ولم يترك بالسجون إلا القليل ممن قتل أو سرق وقطع أيدى جماعة وأطلقهم، ثم (أمر) بتوسيط جماعة من المجرمين منهم شخص يسمى عبد القادر أبو أُدّية وآخرين منهم، وقطع أيدى جماعة من الحرامية. ثم أفرج (عن) الشيخ صلاح الدين بن أبى السعود بن القاضى إبراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة، وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم، فأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه، وكان سبب ذلك أن شخصا يقال له إبراهيم السمرقندى رافعه عند السلطان على أنه لقى خبية فى مكة لبعض التجار فيها مال جزيل، فأرسل السلطان أحضره على غير صورة من مكة، فلما حضر قال له: المال الذى لقيته.

وكان الأمير الدوادار فى مدة غيبة السلطان يركب كل يوم ويسير نحو المطرية، فإذا رجع يدخل من باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء المقدمين الذين تخلفوا بمصر والجم الغفير من العسكر، فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعبيد النفطية، ومماليكه بسيوف وبأيديهم رماح بشطفات حرير ملون فترج له القاهرة وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس، فكانت نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها، وقد عظم أمره جدا. ـ وفى يوم الجمعة لما تحقق موت السلطان فلم تدع الخطباء فى ذلك اليوم على المنابر باسم سلطان بل دعوا باسم الخليفة فقط ولم يذكروا اسم سلطان، وبعضهم قال: اللهم ولِّ علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا، واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا سلطان، وكذلك البلاد الشامية.

وفى هذه الأيام وقع الفساد من العربان فى الشرقية وغيرها من البلاد، فنهبوا عدة بلاد من المنزلة وغيرها من ضواحى الشرقية ولم يبقوا لهم مواشى ولا بقراً ولا غنما، حتى أخذوا صيغة النساء، وقتل من الفلاحين فى هذه الحركة مالا يحصى عددهم، ومن القصاد، وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما لما تحققوا موت السلطان، وصارت مصر فى اضطراب والإشاعات قائمة بالأخبار الردية عما جرى للعسكر والسلطان. وكان أكثر من شنّ هذه الغارات أولاد شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعه من العشير. وفعلوا ما هو أعظم من ذلك بالعسكر والتجار الذين دخلوا صحبة القفل، فقتلوا من العسكر والتجار مالا يحصى عددهم

وأخـذوا أمـوالهم وجـمـالهم، والذى سلم عـروه، وجـرى على العسكر من العربان ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان، ووقع لهم ذلك بين قطيا والصالحية عندما وصلوا إلى الأمان.

رمضان ٩٢٢ هـ

وفيه دخل قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركة وكل ما يملكه، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة وخطب باسمه فيها، ومشى حكمه من الفرات إلى حلب، وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى الأسر عند ابن عثمان بحلب، ولولا هرب محمود مع العسكر وإلا كان أُسر معهم، وأخبر أن إبراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقشى الذين كانوا من أخصاء السلطان الغورى، فلما مات اتفَوا على سليم شاه بن عثمان، وصاروا من جماعته وصاروا يتقربون إلى ابن عثمان بمرافعة جماعة الغورى، ولم يتذكروا شيئا من إحسان الغورى لهم، ولا سيما ما أحسنه الغورى إلى العجمى الشنقشى من سلاريات وشق وسمور ومال وإنعامات جزيلة فلم يثمر معهم إحسانه لهم، فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى بأن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى، فتوجه الوالى إليهم وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهم وحاشيتهم، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى، وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان، وكانوا يكاتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة، وصاحب البيت أدرى بالذى فيه.

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغورى.

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدّون جهورى وكانت صفته طويل القامة غليظ الجسد ذو كرش كبير، أبيض اللون، مدوّر الوجه، مشحم العينين، جهورى الصوت مستدير اللحية، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلا. وكان ملكا مهابا جليلا مبجلا فى المواكب ملئ العيون فى المنظر، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة. وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطانى، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان، فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش ومياتر زركش. وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجور بالسروج البداوى والركب العراض. وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكى. وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر. وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور. وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه، ويحب رؤية الأزهار والفواكه، ويميل إلى أبناء العجم، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم. وكان مولعا بغرس الأشجار، وحب الرياضات، وسماع الأطيار المغردة، ونشق الأزاهر العطرة والبخور. وكان يستعمل الأشياء المفرحة، وكان نهما فى الأكل، وكان يغوى طيور المسموع، وكان يُعرف

بقانصوة من بيبردى الغورى. واستمر يرتع فى ملك مصر على ماذكرناه من التنعم والرفاهية، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمى التى لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا.

وكان للغورى محاسن ومساوى لكن مساوئه أكثر من محاسنه، فأما ما عُدّ من محاسنه فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدّة عند قوة خلقه، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد فى الصالحين والفقراء، ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية، وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار، وكان قريبا من الناس يحب المزح والمجون فى مجلسه غير كثيف الطبع فى ذاته، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالهم.

وأما ما عُدّ من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى، منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم مالا حدثت فى سائر الدول من قبله، ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس

الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز فى ملّة من الملل، ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون: علينا مال السلطان، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك، وقرر على دار الضرب مالا له صورة فى كل شهر فكانوا يصنعون فى الذهب والفضة النحاس والرصاص جهارا، فكان الأشرفى الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا، وقد سلّم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين فلعب فى أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم، فلما شنق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى فمشى على طريقة جمال الدين، وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر، فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته إلى أن مات، وقد ورد فى الحديث الشريف: من غشّنا فليس منا. ومن مساوئه أنه كان سجن الريّس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة، وأقام بها أياما، وكان من المقربين عنده. ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلما، ولو كان للميّت أولاد ذكور وإناث فيمنعهم من ميراثهم، ويخالف أمر الشرع الشريف.

ومنها أنه كان يولّى الكُشّاف ومشايخ العربان على البلاد، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة، فتفرده الكشاف ومشايخ

العربان على بلاد المقطعين والأوقاف، فيأخذ كل منهم المثل أمثال، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد. وكذلك كان يولّى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير.

وكان حسين نائب جدّة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال، فامتنعت التجار من دخول بندر جدّة وآل أمره إلى الخراب، وعزّ وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع، وأخرب البندر. وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم، وعزّ وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج. وكان كل أحد من الأراذل يتقرّب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل أردب، وهى ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى، وكذلك على البطيخ والرمان، حتى حرّج على بيع الملح. وجدّد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط مالا فعله هناد فى زمانه. ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله، ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحليبى التاجر وغيره من التجار. وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه

مالا له صورة، ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قرّر عليه. وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال، منهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر كان، ومنهم شمس الدين بن عوض، ومعين الدين بن شمس، وعلم الدين كاتب الخزانة، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال، ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات.

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجُلبان. ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك. ومنها أنه أرسل فكّ رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة. ومنها أنه قطع المعتدّات التى كانت تسامح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين، وجدّد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتُرزع الأراضى، فكانت المقطعون تقاسى من البهدلة مالا خير فيه. ثم تزايد شحّه حتى صار يحاسب السوّاقين الذين فى سواقى القلعة، والخولة الذين فى سواقى الميدان، بجلّة روَث الأبقار وما يتحصل من ذلك فى كل يوم، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردّونه للذخيرة. وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة، وصادر حتى المغانى النساء من الرؤساء. وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة بنفسه، ما يدخل

إليها وما يخرج منها، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن في كل يوم، فكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه صرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين، ويزخرف الحيطان بالذهب والسقوف، وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين. وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من الكُتّاب، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مُرضٍ بل على أمور مستفجّة. وكان يتغافل عن أمور القتلاء ويدفع الأخصام إلى الشرع ويضيع حقوق الناس عليهم. وكان يكسل عن علامة المراسيم فلا يعلّم على المراسيم إلا قليلا، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك، حتى كانت تُشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوايج. ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك. انتهى.

وأما ما أنشأه من العمائر التي بالقاهرة، فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيّين، والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ومن إنشائه المئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع. وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي، وجدّد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين. وأنشأ في باب القنطرة ربعين ودكاكين، وكذلك الربعين التي بين الصورين والطاحون عند المصبغة. وأنشأ البيت الذي في البندقانيين لولده وتناهى في زخرفه، وأنشأ هناك ربعا ووكالة، وأنشأ الميدان الذي تحت

القلعة، ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية، وأجرى إليه ماء النيل من سواقى نقالة، وأنشأ به المناظر والبحرة والمقعد والمبيت برسم المحاكمات. وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة. وجدد غالب عمارة القلعة منها الدُهيشة، وقاعة البيسرية، وقاعة العُواميد، وقاعة البحرة، وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش، وجدّد عمارة المطبخ الذى بالقلعة، وجدّد عمارة القصر الكبير الذى بالقلعة، وسائر البيوتات التى بها، وجدد عمارة سبيل المؤمنى وجعل سقفه عقود بالحجر. وأنشأ الربع والدكاكين التى بسويقة عبد المنعم. وأنشأ الربع والوكالة التى فى الجسر الأعظم. وأنشأ سوقا للرقيق بالقرب من خان الخليلى. وجدد عمارة ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفصّ الحجر المشهر بعدما كان مبنيًا بالطوب اللبن. وأنشأ المجراة ونقلها من درب الخولى إلى موردة الخلفاء. وجدّد عمارة المقياس، وأنشأ به القصر على تلك البسطة التى كانت بها، وأنشأ بها المقعد المطل على البحر، وأنشأ على أبوابه قصرين، وجدّد عمارة قاعة المقياس، والجامع الذى هناك. وجدّد عمارة قنطرة بنى وائل، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الحاجب، وقنطرة الخروبى وعلاّها حتى صارت المراكب تدخل من تحتها، وجدّد عمارة قناطر السباع. وأنشأ المصاطب وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية. وأنشأ بالطّينة على ساحل البحر الملح قلعة لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة. وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر. وجدد عمارة أبراج الإسكندرية. وأصلح طريق

العقبة. ودوّار حقف، وأنشأ هناك خانا بأبراج على بابه، وجعل فيه الحواصل لأجل ودائع الحجاج، وأنشأ فى الأزنم أيضا خانا وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذى فى العقبة، وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل الحجاج. وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك، وأجرى عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين. وأنشأ بجّدة سورا على ساحل البحر الملح وفيه عدّة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج، وجاء هذا السور من أحسن المبانى هناك. وأنشأ على شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة. وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدّة مبان بها نفع للمسلمين. - وفى الجملة إن السلطان الغورى كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه، ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه فى أفعاله ولا علوّ همته ولا عزمه فى الأمور، وكان كفئا تاما للسلطنة، مبجلا فى المواكب تملأ منه العيون.

ذكر سلطنة الملك الأشرف أبو النصر طومان باى من قانصوه الناصرى

ثبت موت السلطان الغورى ورجعت الأمراء من التجريدة فوقع الاختيار منهم على سلطنته. فامتنع من ذلك غاية الامتناع، والأمراء تقول له: ما عندنا سلطان إلا أنت، وهو يمتنع من ذلك. ثم ركب هو والأمير علان وجماعة من الأمراد المقدمين وتوجهوا إلى كوم الجارح عند الشيخ سعود، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك، فتعلل الأمير طومان باى عن

السلطنة بأنواع من العلل، منها أن خزائن بيت المال ليس فيها درهم ولا دينار، فإذا تسلطن ما ينفق على العسكر شيئا ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف على مصر، وأن الأمراء لا يطاوعون على الرجوع إلى السفر ثانيا، ومنها أنه إذا تسلطن يغدرون به ويركبون عليه ويخلعونه من السلطنة ويرسلونه إلى السجن بثغر الإسكندرية، ولا يبقونه فى السلطنة إلا مدة يسيرة. ثم إن الشيخ سعود أحضر بين يدى الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الذين جاءوا بصحبته، وحلّفهم عليه بأنهم إذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتنا وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف بمعنى ذلك، فلما تحالفوا ترشح أمر الأمير طومان باى إلى السلطنة، وانفض المجلس على ذلك، وتوجهوا الأمراء إلى بيوتهم.

أقول: تسلطن الأشرف طومان باى وله من العمر نحو ثمانية وثلاثين سنة. فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة، وهى الجبّة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى، فأفيض عليه شعار الملك وتلقب بالملك الأشرف مثل قرابته الغورى. ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب، ولا وجدوا له فى الزردخاناه لاقُبّة ولا طير ولا الغواشى الذهب، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة،والخليفة قدّامه، فطلع من باب سر القصر الكبير، وجلس على كرسى الملكة، وقبلوا له الأمراء الأرض، ودقت له البشائر بالقلعة، ونودى باسمه فى القاهرة، وارتفعت له

الأصوات بالدعاء، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته، وكان محببًا للعوام فإنه كان ليّن الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متحبّر. فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره فى موكب حافل. وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن، فسبحان من لايزول مُلكه ولا يتغير على طول المدى.

ويوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصرى محمد بن يلباى المؤيدى حاجب ميسرة بدمشق، وأخبر أن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينة دمشق، وملك قلعتها وقتل على باى الأشرفى نائب القلعة، وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام، وحضر ابن يلباى هذا وهو فى زى العرب ببشت وزمط على رأسه. فلما أشيعت هذه الأخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس فى أمر مريب بسبب ذلك قالوا: ما بقى بعد أخذ الشام إلا مصر، وجزموا بهذا الأمر وعوّل بعض الناس من أهل مصر على الهروب إلى جهة الصعيد فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر، ولا سيما كانت ليلة عيد الفطر والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر، والأنعة قائمة بسبب من قتل من العسكر.

شوال ٩٢٢ هـ

وفى يوم الأثنين ثامنه حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى باى الأحدب، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل إلى

الشام تلاشى أمره، ووقع الوخم فى عسكره فصار يموت منهم فى كل يوم جماعة، وعزّ عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف، وقد ضيّقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتبن، وكل من خرج من عسكره إلى الضياع قتلوه العرب، وقد تجوّن بدخوله إلى الشام، فلا بقى يمكنه الخروج منها، وصارت خيول عسكره سابية تأكل من ورق الأشجار وهو فى غاية الحصر.

وفى يوم الثلاثاء تاسعة كانت كاينة الزينى بركات بن موسى مع الشيخ سعود، سبب ذلك أن شخصا مدابغيًا يبيع الجلود يقال له الدمراوى مكاسا على بيع الجلود، فجار عليه ابن موسى، فوقع بينه وبين ابن موسى، فقصد ابن موسى يقبض عليه، فتوجه الدمراوى لى عند الشيخ سعود واحتمى به، فأرسل إليه الشيخ سعود رسالته بسبب الدمراوى قد شفع فيه، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت إلى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمرواى، فأرسل الشيخ خلْف ابن موسى، فلما حضر عنده فى كوم الجارح وبّخه الشيخ بالكلام، وقال له: يا كلب كم تظلم المسلمين؟ فحنق منه ابن موسى وقام على غير رضى، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال، فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد يهلك، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير، فلما حضر قاله له: أوضعه فى الحديد واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه بيؤذى المسلمين. فلما طلع الأمير علان وشاور السلطان فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ سعود،

فأرسل السلطان يقول للشيخ سعود: مهما اقتضاه رأيك فيه افعله. فلما ردّ الجواب على الشيخ بذلك فأمر الشيخ بإشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة، فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبرطاق وهو فى الحديد وينادى عليه: هذا جزاء من يؤذى المسلمين. فتوجهوا به من كوم الجارح إلى ساحل البحر من مصر العتيقة وهم ينادون عليه إلى أن وصل إلى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية، فأراد أن يوقع فيه فعل بشنق أو تغريق، ثم عاودوا الشيخ فى أمره، بأن عليه مالاً للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله، فعفى الشيخ عنه من القتل، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكن من أمره ما يكون، وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ سعود، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكاينة على الهلاك وذهاب الروح.

ولما جرى لابن موسى ما جرى ظهر غريمه شهاب الدين بن الصايغ وكان يسمى عليه فى أيام الغورى، فلما وقعت هذه الكاينة لابن موسى انتدب إلى مرافعته ابن الصايغ وقال: أنا أثبت فى جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار. ثم إن ابن الصايغ توجه إلى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقوّاسة وجماعة كثيرة، وكبس على نساء ابن موسى الاثنتين وقبض عليهن ونهب ما فى بيوتهن من قماش وأمتعة، وقبض على عبيده وغلمانه وحاشيته، فلما رأى السلطان قد حلّ فى أمره توقّف عن ما كان فيه من أذى ابن موسى، ثم إن ابن موسى

قال: أنا أثبت فى جهة ابن الصياغ مائتى ألف دينار. وقال للأمير علان: ارسل خلف ابن الصايغ واودعه فى الحديد حتى يعمل حسابه، فلما حضر ابن الصايغ وضعه الأمير علان فى الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى. وأما ما كان من أمر الشيخ سعود فإنه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه الدايرة والأشلة وأنكروا عليه الناس والفقراء وقالوا: إيش للمشايخ شغل فى أمور السلطنة، واشتغلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى.

.- وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة - وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك، وأن قد وقع بين الريّس سلمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدّة. وأن كلا منهما توجّه إلى جهة من جهات الهند ولم يعلم له خبر. -

- وفيه أرسل السلطان قبض على جماعة من الأروام الذين فى خان الخليلى، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة وعندهم جواسيس لابن عثمان، فأرسل قبض عليهم ووضعهم فى الحديد.

ذو القعدة ٩٢٢ هـ

وفى يوم الأربعاء تاسعة حضر دوادار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قد فرّ من ابن عثمان، فأخبر أن ابن عثمان

أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة، بل أشاعوا أخذها، وأن نائب غزّة قد هرب. فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار وتنكدّ السلطان إلى الغاية، ونادى فى ذلك اليوم بأن العسكر المعيّن للسفر ممن أخذ النفقة يخرجون فى ذلك اليوم من غير تأخير، ومن تأخر لا يسأل ما يجرى عليه. ـ فلما كان يوم الخميس عاشرة خرج العسكر على وجوههم مسرعين، وأشيع سفر السلطان بنفسه وأنه هو الذى يلاقى ابن عثمان، وصحبته الأمراء قاطبة وسائر العسكر. وحضر صحبة دوادار نائب حلب أمير كبير غزّة وهو فى الحديد، وجماعة من أجناد الحلقة بغزّة وهم فى الحديد، وأرسل نائب غزّة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر إلى غزّة ويملكها من غير مانع. فلما حضروا بنى يدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان وإنما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة، فصدّقهم السلطان على ذلك، وأرسل جان بردى الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرّؤهم مما قالوه فى حقهم بالباطل، ففكّهم السلطان من الحديد وأرسلهم إلى نقيب الجيش حتى يتبصّر فى أمرهم. ـ وفى يوم الخميس المقدم ذكره أخلع السلطان على الأمير يوسف البدى الذى كان وزيرا وقرّره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل ببيت المال، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انفصاله عنها.

وفى يوم السبت ثانى عشرة جلس السلطان على التكّة بالحوش وحضر الأمراء، فاستحثّهم السلطان على أن

يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طُقطباى حاجب الحجّاب: أنا عزمت على السفر إلى البحيرة. وكان السلطان جعله متحدّثا فى كشوفية البحيرة، فقالوا الأمراء: الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من البحيرة وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نُهب لك برك ولا قماش. فتعلّل أنه ضعيف، فحصل بينه وبين الأمراء في ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان، وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا ينهبوا بيته ويحرقوه، وقيل إن بعض المماليك لكمه، وقاسى من البهدلة مالاخير فيه، فتقرر الحال على أنه يخرج إلى التجريدة صحبة الأمراء، ومنع السلطان المماليك من نهب بيته. - وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة.

وفى يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذى كان مسافرا فى التجريدة، فكتبهم إلى السفر ثانيا ولم يترك منهم إلا القليل، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك. ثم فى ذلك اليوم عرض السلطان عجلات من خشب تجرّها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك، وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال، وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنّشاب، فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال. وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه إلى قتال ابن عثمان، واستحثّ بقية الأمراء على الخروج بسرعة، ولم ينفق على الأمراء شيئا، وقال لهم: اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم

وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم إن خرجتوا خرجت معكم وإن قعدتوا قعدت معكم وما عندى نفقة لكم.

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق . ـ وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغيّر خاطره على الزينى بركات بن موسى، وأعاده إلى الترسيم بعدما كان ترشّح أمره إلى إعادته إلى وظائفه، وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما تقدم ذكره قرر عليه مالاً فلم يرد منه إلا اليسير وادّعى العجز، فلما جاء على السطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ضيق على أصحاب المصادرات، منهم: ابن موسى ومحمد المهتار وجمال الدين بواب الدهيشة، وآخرون ممن عليهم بواقى الأموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر، ومن حين قرّر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى تلاشى أمر ابن موسى وآل أمره إلى العكس والزوال.

وفى يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير ألماس والى القاهرة وبرّز إلى السفر فى ذلك اليوم ـ وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك فى قناطر السباع، فوجدوه قد عمد إلى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وصنع منه السنبوسك، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير ماماى المحتسب، فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلّق فى رقبته بحبل، فطافوا به هو ورفيقه فى المدينة

ثم سجنوهما فى المقشرة، ولم تزل الأعجام يقع منهم هذه الأفعال الشنيعة من قبل ذلك.

وفى يوم الاثنين حادى عشره وقع فيه من الحوادث أن بعض المماليك السلطانية خرجوا يسيرون إلى نحو المطرية، فرأو جماعة مقبلين من نحو بركة الحجاج، فلما قربوا منهم فإذا هم من جماعة ابن عثمان، فقالوا لهم: مَن إنتوا. فقالوا نحن قُصّاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان، وكانوا نحو خمسة عشر إنسانا، وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخمل، ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى، فلما قُتل وملك ابن عثمان حلب والشام تحشّر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسروا يجُوا من على غزّة، فإن نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزّة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزّة، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق غير الدرب السلطانى، وطلع بهم من على التيه وأتوا بهم إلى عجرود، فما شعروا بهم أهل مصر إلا وهم فى وسط المدينة، فلما صدفوهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد وعلى جماعته وعلى ابن محاسن ووجدوا معهم ثلاثة من العربان فقبضوا على الجميع. فبينما هم على ذلك قرأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا إليهم وسلّموا عليهم وباسوا أيديهم، فقبضوا عليهم هؤلاء المماليك، وقالوا لهم: من أين علمتوا أن هذا

القاصد يجى اليوم حتى أتيتوا إليه ما إنتوا إلا جواسيس من عند ابن عثمان. فقبضوا عليهم بعد ما أشبعوهم ضربا أتوا بالكلّ إلى بيت الأمير علان الدوادار الكبير. فلما دخل القاصد إلى بيت الأمير علان، قالوا له: انزل عن فرسك وسلّم على الأمير الدوادار. فلم يوافق على ذلك وأغلظ عليهم فى القول، ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدواذار، فلما رأى الدوادار ذلك رسم للمماليك أن ينزلوه من على فرسه غصبا، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية وضربوهم وصكّوهم وعرّوهم من أثوابهم، ووضعوهم فى الحديد بعد ما قد قاسوا غاية البهدلة من جماعة الدوادار، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للأمير ومغلباى دوادار سكين، الذى كان السلطان الغورى أرسله إلى ابن عثمان وحصل منه فى حقّه غاية البهدلة، فقال له السلطان: انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك. فأخذ خشداشينه وتوجه بهم إلى بيت الأمير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدلة أو يقتلونهم فما مكّنهم الأمير علان من ذلك.

ثم قبضوا على عبدالبرّ ابن محاسن الذى حضر صحبتهم، فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمته، فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل إلى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر، من جملتهم خليفة سيّدى أحمد البدوى وآخرون من الأعيان ممن تخلّفوا بحلب، وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق ستين ألف مقاتل، وأنه خُطب باسمه من بغداد إلى الشام على

المنابر، وأن معاملته فى الذهب والفضة ماشية من بغداد إلى الشام، وأنه لما دخل إلى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق، وجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة وهو فى همّة زائدة ويقول: ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة. وأخبر أن ابن عثمان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها، ففى هذه المدة يفتك عسكره فى المدينة ويتجاهرون بأنواع المعاصى والفسوق، وأنهم لا يصومون فى شهر رمضان ويشربون فيه الخمر والبوزة، ويستعملون فيه الحشيش والشخيب، ويفعلون الفاحشة بالصبيان المرُد فى شهر رمضان، وأن ابن عثمان لا يصلّى صلاة الجمعة إلا قليلا.

وقد أشيع عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة من غير ابن محاسن، ممن يشاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام، فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان حنق منه السلطان وقال له: أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك. فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة فسجن به، وأقام أياما حتى طلع الأتابكى سودون الدوادارى وشفع فيه حتى أطلقه من البرج، وقد قطع قلوب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان. ثم إن السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخْفِيّة عنهم. وأشيع أن حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا فاختفوا فى القاهرة، فلما

بلغ السلطان ذلك نادى فى خـان الخليلى بأن أحـدا لا يأوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان ومن غُمز بأن عنده أحدا من العثمانية شنق على دكانه من غير معاودة.

ثم إن السلطان أرسل أخذ المطالعات الذى حضروا على يد القاصد ولم يقابله، فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية. فالذى أشيع عن مطالعة السلطان غالب ألفاظها باللغة التركية، فكان من مضمونها: من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان باى، أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إلى بأن أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكهاالإسكندر ذو القرنين. ومن جملة المطالعة وعد ووعيد وتشديد وتهديد ومن جملة ذلك: إنك مملوك منباع مشترى ولا تصحّ لك ولاية، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جدّ وقد تولّيت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع. وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط : وأنى أخذت الملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغورى، فاحمل لى خراج مصر فى كل سنة كما كان يُحمل لخلفاء بغداد. واحتفل حتى قال: أنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين. ثم ذكر فى أثناء المطالعة: وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا وكذلك الخطبة، وتكون نائبا عنّا بمصر، ولك من غزّة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشقّ بطون الحوامل وأقتل الجنين الذى فى بطنها من الأتراك. وأظهر التعاظم وقوة البأس ولعل

الله تعالى أن يخذله بسبب هذا التعاظم الزائد. وفى آخر مطالعته: وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا. فلما قُرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب، وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنهم إذا طلع القاصد إلى القلعة يقطعونه بالسيوف، فلم يطلع إلى القلعة بسبب ذلك.

فلما أشيع بين الناس بما فى مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة مما تقدم ذكره، اضطربت أحوال الديار المصرية وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان، وقالوا: مثلما طرقتنا قصاده على حين غفلة كذلك يطرقنا هو أيضا على حين غفلة. فشرع الناس فى تحصيل أماكن فى أطراف المدينة وجوانبها ليختفوا فيها إذا دخل ابن عثمان إلى مصر، وبعض الناس عوّل على أنه ينزل فى مراكب هو وعياله وأولاده ويتوجه بهم إلى أعلا الصعيد إذا تحقق مجىء ابن عثمان. وأشيع أن خايرك بك نائب حلب الذى عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان، أرسل مطالعات إلى بعض الأمراء المقدّمين وهو يرغّبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان، وشرع يطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية وأنه إذا دخل إلى مصر يبقى كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه، وكل هذا حيل وخداع حتى يتمكن من الدخول إلى مصر.

ثم أن السلطان نادى للعسكر بأن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشرين الشهر، فجلس السلطان بالحوش على التكّة وطلع العسكر ليقبض النفقة، فلما طلعوا نفق عليهم لكل مملوك ثلاثين دينار وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا. فأرموا تلك

النفقة فى وجهه وقالوا: ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك فإننا لم يبق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح. فنزلوا كلهم من القلعة على حميّة وهم على غير رضى، فحنق منهم السلطان وقام من على التكة وطلع إلى المقعد وقال: ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك والخزائن فارغة من المال، وإن لم ترضوا بذلك فولّوا لكم من تختاروه فى السلطنة وأنا أتوجّه إلى مكة أو غيرها من البلاد. فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان: إن كنت تعمل سلطانا فامْشِ على طريقة من تقدْمك من السلاطين، وإن رحت لعنة الله عليك، غيرك يجى يعمل سلطانا. فسمع ذلك بأذنه منهم، وأشيع أن السلطان قال للعسكر: إنتو أخذتوا من السلطان الغورى مائة وثلاثين دينارا ولم تقاتلوا شيئا وكسرتوا السلطان وأخنيتوا به حتى قتل منكم قهرا. فنزل العسكر من القلعة على غير رضى، وأشيع إثارة فتنة بين العسكر. ـ ثم أن فى ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصاغر، وجميع العسكر من الخاصكية والجمدارية، يطلعون غدا، باكر النهار، فإن العرض عامّ، فانفضّ المجلس على ذلك.

فلما كان يوم الخميس رابع عشرينه جلس السلطان على التكة بالحوش وطلع الأمراء قاطبة والعسكر، طلع سيّدى ابن السلطان الغورى، فقال السلطان: أدى ابن أستاذكم قد حضر اسألوه إن كان أبوه ترك فى الخزائن شيئا من المال فيخبركم بذلك، وإن كان تسلطنوه فأنا أول من يبوس له الأرض. فقال

المماليك الجلبان: نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بثأر أستاذنا. وقالت المماليك القرانصة: نحن ما نسافر حتى يعطينا مائة وثلاثين دينارا كما أعطى من سافر قبلنا. فانفصل المجلس مانعا أيضا، وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم. وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان: اعمل كما عمل الأشرف قايتباى والسلطان الغورى وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والإقطاعات، لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر. فلم يوافق السلطان على ذلك، وقال: ما أحدث فى أيامى هذه المظلمة أبدا. فشكره الناس على ذلك ودعوا له، ولو فعل ذلك جاز على الناس، وقالوا بعذره لأجل دفع العدو، وما تمّ فى الخزائن مال، ولكن وفقه الله تعالى إلى فعل الخير وسُطّر أجر ذلك فى صحيفته إلى يوم القيامة.

ذو الحجة ٩٢٢ هـ

وفى يوم الأحد رابعة وقعت حادثة مهولة، وهو أن السلطان نزل إلى الميدان، واجتمع الأمراء والعسكر، فلم يشعروا إلا وقد قامت ضجّة كبيرة فى الرملة، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى الريدانية، فقال السلطان للعسكر: كم نَقُل لكم أخرجوا للتجريدة ما ترضوا تسافروا، فاخرجوا لاقوا ابن عثمان. فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة، ورُجّت القاهرة رجّا مهولا ووزع الناس قماشهم فى الأماكن المخيّفة. فلما اضطربت الأحوال وركب العسكر فتوجّهوا إلى الريدانية فلم يروا هناك أحدا من العثمانية، فرجع

العسكر إلى بيوتهم بعدما ارتجت القاهرة وعولت الناس على أن يختفوا فى فساقى الموتى. ثم أسفرت هذه الواقعة على أن جماعة من العربان نزلوا من الجبل وأتوا إلى الريدانية، فأشاع الذى رآهم عن بُعد أنهم من العثمانية، فانتشرت هذه الأخبار فى القاهرة من غير سبب. ـ وفى ذلك اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلب وسلّم القلعة إلى ابن عثمان من غير مشقّة ولا محاصرة، فتغيّر خاطرا السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة، فأقام به مدّة ثم أفرج عنه فى ذلك اليوم.

وفى يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا إلى غزّة وانكسروا من عسكر ابن عثمان، فدخل جان بردى الغزالى وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشرات، ودخل العسكر وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل، أنحس من المرة الأولى، فدخل بعض المماليك السلطانية وهو راكب على حمار، وشىء على جمال، وقد نُهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم، ولم يسلم من القتل إلا من كان فى أجله فسحة. وذكروا عن عسكر ابن عثمان أن معهم أرماح بكلاليب يخطفون بها الفارس من على فرسه، وقيل إنهم اختطفوا جان بردى الغزالى من على فرسه وألقوه على الأرض، ولولا غلمانه قاتلوا عنه العثمانية حتى خلّصوه وإلا كانوا حزّوا رأسه مثل الأمير خُدابردى الذى قُتل. وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر لا يحصى عددهم، وأنهم معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس

فى أول العسكر، وأن معهم رماح بكلاليب حديد إذا قربوا من الفارس اختطفوه من على فرسه، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط.

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التى يرسلها صحبة العسكر، فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة، فكان عدتها مائة عجلة، وتسمى عند العثمانية عربة، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص، فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا، وصار يرتب العجل فى مشيها فى الميدان، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة، ومحملة أيضا بارود ورصاص وحديد ورماح خشب وغير ذلك، وقدّام العجلات أربع طبول وأربع زمور وقدّامها من الرماة نحو مائتى إنسان ما بين تركمان ومغاربة، وبأيديهم صناحق بعلبكى أبيض وكندكى أحمر، وهم يقولون: الله ينصر السلطان. وجماعة من النفطية ما بين عبيد ونفطية يرمون بالنفط قدام العجلات وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير، ويوسف الزردكاش الثانى، وجماعة من الزردكاشية، وعبدالباسط ناظر الزردخانة، والشهابى أحمد بن الطولونى، وقدامهم الجم الغفير من النجارين والحدادين الذين تعينوا للسفر مع التجريدة، فخرجوا من باب الميدان إلى الرملة، ونزلوا من على القبو وشقوا من البسطيين، ودخلوا من باب زويلة وشقوا من القاهرة، فرجت لهم فى ذلك اليم القاهرة

واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة، وكان يوما مشهودا، وارتفعت الأصوات من الناس بالدعاء للعكسر بالنصر على ابن عثمان الباغى، وتباكت الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه، فاستمروا شافقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا إلى الريدانية عند تربة العادل التى هناك. وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم، من شدة الازدحام فى ذلك اليوم، فلما وصلوا بالعجل إلى تربة العادل صفوهم هناك إلى أن تخرج الأمراء، فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة.

وفى يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان أخبار ردّية بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره وهو قاصد إلى مصر، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين، فرقة تجىء من على الدرب السلطانى، وفرقة تجىء من على التيه من مكان جاء منه القاصد الذى تقدم ذكره. فلما بلغ السلطان هذا الخبر أرسل أحضر الأمراء وضربوا مشورة فى ذلك، وأشيع أن السلطان يخرج إلى الريدانية ويقيم بها ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتقدم إلى الصالحية وفرقة تتوجه لى نحو عجرود. وكانت الأمراء عولوا على أن يخرجون إلى التجريدة فى أول السنة الجديدة، فلما ورد عليهم هذه الأخبار اضطربت أحوالهم، ورسم لهم السلطان بأن يبروزا خيامهم فى الريدانية بسرعة ويكونوا على يقظة فإن ابن عثمان قد وصل إلى غزة وقيل إنه توجه يزور بيت المقدس ثم يمشى بعساكره على

عسكر مصر، وقد كثر القال والقيل فى ذلك واضطربت أحوال الناس قاطبة إلى أين يذهبون من هذه الفتنة إلى حين تنقضى.

وفى يوم الاثنين تاسع عشره جلس السلطان على التكة بالحوش، وطلع الجم الغفير من المغاربة، فلما طلعوا إلى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل إليهم الأمير شاد بك الأعور، فقال لهم: السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف إنسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة. فأرسلوا يقولون للسلطان: نحن مالنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل إلا الفرنج ما نقاتل مسلمين. وأظهروا التعصب لابن عثمان. فلما عاد الجواب على السلطان بما قالوه المغاربة فعز على السلطان ذلك وأرسل يقول لهم: إن لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان وإلا المماليك الجلبان يقتلوا كل مغربى فى مصر حتى ما يخلوا بها مغربى يلوح. فنزلوا من القلعة على غير رضى من السلطان.

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس أرسل إلى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص، وأرسل إلى عدة ماكب فيها بارود فدخلت تلك المراكب إلى ثغر دمياط، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك، وهذه عونة من صاحب رودس إلى سلطان مصر حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر، فلم يظهر لإشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة وانما هى إشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها. ولما خرج السلطان إلى الريدانية أشيع أنه يتوجه من هناك إلى الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه يلاقى عسكر ابن عثمان،

فمنعوه الأمراء من التوجه إلى الصالحية وقالوا: ما يقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية.

ثم إن التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من بعض الدكاكين التى فى الأسواق ويدخلون بها فى الأماكن المنسية حتى يسلم، وما سلم فيما بعد. ـ وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا إلى القاهرة وسكنوا بها، ونقل أعيان الناس قماشهم إلى الترب وإلى المدارس والزوايا والمزارات وإلى بيوت العوام التى فى الأرباع لعله يسلم، فماسلم فيما بعد، وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان والاطمان، وأن أحدا من العثمانية لا يشوش على أحد من أهل بلبيس ولا ما حولها من الضياع، فدعوا له أهل بلبيس والفلاحين قاطبة. ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى العكرشة، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هناك فلم تمكنه الأمراء من ذلك، ولو لا قاهم من هناك لكان عين الصواب، فإن خيولهم كانت قد بطلت من الجوع، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خرج من الشام، وهم فى غاية التعب، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا إلى الخانكاة ويجددوا العليق والمأكل والمشرب والراحة من التعب، فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول إلى الخانكاه. ثم إن السلطان رسم للعسكر بأن يبات تلك الليلة قدام الوطاق وهم على ظهور خيولهم لابسون آلة الحرب، ولا ينامون لا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية، وقد اشتد الرعب فى قلوب الأتراك من عسكر ابن عثمان.

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلهابأولادهم وعيالهم وقماشهم ودخلوا إلى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان، وكذلك غالب فلاحين الشرقية وأهل بلبيس، فدخلوا القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية. ثم إن العربان من السوالمة صاروا يقبضون على من يلوح لهم من العثمانية ويقطعون رءوسهم ويحضرونها إلى بين يدى السلطان، فيرسم السلطان بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة . . ثم إن السلطان عرض العسكر بالريدانية وهم لابسون آلة الحرب، حتى عرض الأمراء المقدمين والأربعينات والعشرات، فحضرت الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمور، وكان لهم يوم مشهود بالريدانية.

ثم إن السلطان سير إلى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر قاطبة، فسير بهم ثم رجع إلى الوطاق وقدامه الطبول والزمور والنفوط، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية حتى سد الفضاء . . وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان إلى بلبيس رسم بحرق الشون التى فى بلبيس وما حولها، حتى الشون التى فى الخانكاه، فأحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفول، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا ينهبوها بسبب خيولهم فيتقوى بذلك العسكر على القتال . . وفى هذه المدة صارت العربان تقطع رءوس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات، فيرسل السلطان يعلق تلك الرءوس على أبواب المدينة.

ثم إن السلطان أرسل مع دوادار الوالى رأسين مقطوعة، فزعموا أن أحدهما رأس إبراهيم السمرقندى، والأخرى رأس أمير ابن عثمان، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة. وقد تحيل بعض العربان على إبراهيم السمرقندى وأضافه وبات عنده، وكان السمرقندى أتى صحبة ابن عثمان، فلما بات عند ذلك الفلاح حز رأسه تحت الليل، فلما طلع النهار أحضرها بين يدى السلطان طومان باى، وقال له: الذى يأتيك برأس إبراهيم السمرقندى إيش تعطيه؟ فقال له السلطان: أعطيه ألف دينار. فأخرج رأس السمرقندى له من تحت برنُسه وقاله له: هذه رأس إبراهيم السمرقندى. فلما تحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوى ألف دينار. وكان إبراهيم السمرقندى أصله من أهل المدينة الشريفة، وطاف البلاد من أراضى العجم إلى بلاد الروم، وكان يعرف باللغة التركية، فلما دخل إلى مصر تحشر فى السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه، فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه، وقيل هو الذى حسن عبارة لابن عثمان بأن يدخل إلى مصر ويملكها ويقطع جادرة الجراكسة من مصر، وأطمعه فى ذلك حتى دخل إلى مصر وكان السمرقندى من الظلمة الكبار، ولو عاش السمرقندى إلى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لأهلها منه خير قط، وكان يرافع أعيان مصر أشد المرافعة، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفوا شره.

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل ببركة الحاج، فاضطربت

أحوال عسكر مصر وغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغير ذلك من أبواب المدينة قاطبة، وغلقت أسواق القاهرة وتعطلت الطواحين وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق. ثم إن السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان إلي بركة الحاج، زعق النفير بالوطاق وركب العسكر قاطبة، وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات، وركب قاسم بك بن عثمان، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا، واجتمع من العساكر من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس، ودقت الطبول والزمور حربيا، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، وصف العسكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطية، فاجتمع هناك الجم الغفير من العسكر. وكان السلطان طومان باى له همة عالية فى هذه الحركة، لو كان السلطان الغورى حيا ما كان يثور ببعض ما ثار به السلطان طومان باى، لكن لم يعطه الله تعالى النصر على ابن عثمان، فلم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ولم يبرز كل منهما إلى غريمه فى ذلك اليوم، فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رءوس من العثمانية، ويرسلون يعلقونها على أبواب المدينة.

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة، فيه وقعت كاينة عظيمة، تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب، وتضل لهولها الآراء عن الصواب، وما ذاك إلا أن السلطان طومان باى لما توجه إلى الريدانية ونصب بها الوطاق، فحصن

الوطاق بالمكاحل والمدافع، وصف هناك الطوارق، وصنع عيلها تساتير من الخشب، وحفر خندقا من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية، وقد تقدم القول على ذلك. ثم إن السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكايب فيها عليق، وعلى أقتابها صناجق كبار بيض وحمر يخفقون فى الهواء، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان، وأن الحصاريقيم مدة طويلة، فجاء الأمر بخلاف ذلك. فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام بها يومين، فلم يجر السلطان طومان باى أن يتوجه إليهم، ولو توجه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب.

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التى كانت فى مرج دابق، فقتل من العثمانية ما لايحصى عددهم، وقتل سنان باشاه لالاء ابن عثمان وكان أكبر وزرائه، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار. وقتل فى هذه المعركة ابن بن سوار، قتل فى الريدانية ودفن على جده

سوار فى تربته التى تجاه تربة يشبك الدوادار، وكذلك قتل هناك سنان باشاه وزير ابن عثمان الأكبر.

ثم إن العثمانية تحابوا وجاءوا أفواجا أفواجا، ثم انقسموا فرقتين، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاص، فقتل من عسكر مصر مالايحصى عددهم، وقتل من الأمراء المقدمين جماعة، منهم أزبك المكحل وآخرون منهم. وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا وقيل انكسر فخذه فاختفى فى غيط هناك، وجرح الأمير علان الدوادار. فلم تكن الساعة يسيرة مقدار خمس درجات حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم، فلما تكاثرت عليه العثمانية، ورأى العكسر قد قل من حوله، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى وولى واختفى، قيل إنه توجه إلى نحو طر، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر. وأما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الأحمر، فإنها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الأمراء والعسكر، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخام وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك. ثم نهبوا المكاحل التى نصبهم السلطان هناك، ونهبوا تلك الطوارق والتساتير الخشب والعربات التى تعب عليهم السلطان وأصرف عليهم جملة مال ولم يُفده من

ذلك شىء، ونهبوا البارود الذى كان هناك، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا، فكان ذلك مما جرت به الأقدار والحكم لله الواحد القهار.

ثم إن جملة من العثمانية لما هرب للسلطان ونهبوا الوطاق، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة، فتوجهوا جماعة من العثمانية إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فأطلقوهم أجمعين، وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين. ثم توجهوا إلى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه، وكذلك بيت يونس الترجمان، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار. ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش، وأخذوا عدة جمال من جمال السقايين. صات العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم إلى بعد المغرب، ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال. وهذه الحادثة التى قد وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار فى الأزل، وقال الشيخ بدرالدين الزيتونى فى هذه الواقعة.

نبكى على مصر وسكانها ... قد خربت أركانها العامره

وأصبحت بالذل مقهورة ... من بعد ما كانت هى القاهرة

وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فيه دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة، فدخل وصحبته وزراء ابن عثمان ومن عساكره الجم الغفير، ودخل ملك الأمراء خاير بك نائب حلب، ودخل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل، القاضى المالكى محيى الدين الدميرى، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى، وهؤلاء كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى. ودخل يونس العادلى، وخشقدم الذى كان شاد الشون بمصر وهرب من الغورى إلى بلاد ابن عثمان وكان سببا لهذه الفتنة العظيمة.

فلما دخل الخليفة دخل من باب النصر وشق من القاهرة وقدامه المشاعلية تنادى للناس بالأمان والاطمان والبيع والشرى والأخذ والعطا، وأن لا أحدا يشوش على أحد من الرعية، وقد غُلق باب الظلم وفتح باب العدل، وأن كل من كان عنده مملوك جركسى من مماليك السلطان ولا يغمز عليه شنق على باب داره، والدعاء للسلطان الملك المظفر سليم شاه بالنصر، فضج له الناس بالدعاء من العوام. فلم تسمع العثمانية من هذه المناداة، وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى بيوت الأرباع فى حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة، فاستمر النهب والهجم عمالا فى البيوت ثلاثة أيام متوالية، وهم ينهبون القماش والخيول والبغال من بيوت الأمراء والعسكر، فما أبقوا فى ذلك ممكن.

وفى ذلك اليوم خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة، وقد ترجم له بعض الخطباء، فقال: وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرا عزيزا، وافتح له فتحا مبينا، يامالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين. ـ انتهى ما أوردناه من حوادث سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وقد قلت فى ذلك:

خُتم العام بحربٍ وكدر وحصل للناس غايات الضرر
وأتاهم حادث من ربّهم كان هذا بقضاء وقدر

محرم ٩٢٣ هـ

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فكان مستهل العام يوم السبت . ـ ثم إن السلطان سليم شاه أرسل جماعة من الأنكشارية وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النهّابة من نهب البيوت، ولما انكسر عسكر مصر حوّل السلطان سليم شاه وطاقه من ربكة الحاج ونصبه بالريدانية، وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب من فساقى الموتى ومن غيطان المطرية، فلما يحضرونهم بين يدى ابن عثمان يأمر بضرب أعناقهم. ثم إن بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكى سودون الدوادارى وأحضره بين يدى ابن عثمان، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام فوجده قد جرح وقد كسر فخذه وهو فى حالة الأموات، فأركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء

وجرسه فى وطاقه وقصد يشهره فى القاهرة، فمات وهو على ظهر الحمار، وقيل حزوا رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق. ثم غُمز على الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة، فوجدوه مختفيا فى مكان فحزوا رأسه وعلقوها فى الوطاق. وصاروا العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على المماليك الجراكسة منها، وكل تربة وجد فيها مملوك جركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة من الحجازيين وغيرها ويعلقون رءوسهم فى الوطاق، فضرب فى يوم واحد ثلاثمائة وعشرين رأسا من سكان الصحراء، قيل كان فيهم جماعة من الينابعة وهم أشراف، فراحوا ظلما لا ذنب لهم. وصاروا يكبسون الحارات ويقبضون المماليك الجراكسة من استطبلاتهم ويقبضونهم باليد ويتوجهون بهم إلى الوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هناك، فلما كثرت رءوس القتلى هناك نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرها، حتى قيل قتل فى هذه الوقعة بالريدانية فوق أربعة آلاف إنسان، ما بين مماليك جراكسة غلمان، ومن عربان الشرقية والغربية، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشراف قايتباى، فجافت منهم الأرض وصار لا تعرف جثة الأمير المقدم ألف من جثة المملوك وهم أبدان بلا رءوس . ـ وأما من قُتل من عسكر ابن عثمان فى هذه الوقعة فلا يحصى عددهم.

ثم إن ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى، فلما حضر ألبسه قفطان مخمل مذهبا،

وألبسه عمامة عثمانية، وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه، ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى فى الشرابشيين، وأسكن الدفتردار أحد وزراء ابن عثمان فى بيته الذى فى البندقانيين - ثم توجه إليه يوسف البدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا مخملا، وأقره متحدثا على جهات الغربية، وكذلك أخلع على فارس السيفى تمراز الشمسى وأقره كاشف المنية وغير ذلك من الجهات القبلية، وأخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله متحدثا فى الحسبة إلى أن يقرر بها من يختاره، وأخلع على يحيى بن نكار وجعله متحدثا فى ولاية القاهرة إلى أن يقرر بها من يختاره..

وفى يوم الأحد ثانى شهر الله المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من الريدانية ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى، وقد أحضروا إليه مفاتيح قلعة الجبل على أنه يطلع إليها فلم يلتفت إيل ذلك واختار الإقامة على شاطىء بحر النيل . - فلما كثرت العثمانية بالقاهرة صاوا كل من رأوه من أولاد الناس لابسا زمط أحمر أو تخفيفة يقولن له: أنت جركسى، فيقطعون رأسه، فلبست أولاد الناس كلها عمائم حتى أولاد الأمراء والسلاطين قاطبة، وأبطلوا لبس التخافيف الزموط من مصر.

فى يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ودخل إلى القاهرة من باب النصر، وشق المدينة فى موكب حفل، وقدامه جنايب كثيرة وعساكر عظيمة ما بين مشاة

وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع، واستمر شافقا من المدينة حتى دخل من باب زويلة، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك إلى بولاق ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف، فلما شق من المدينة ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة. وقيل إن صفته ذرى اللون، حليق الذقن، واف الأنف، واسع العينين، قصير القامة، فى ظهره حنية، وعلى رأسه عمامة صغيرة، يلبس قفطانا مخملا، وعنده خفة ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس. وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يعف مثل نظام الملوك السالفة؛ غير أنه سيىء الخلق سفاك للدماء، شديد الغضب، لا يراجع فى القول. ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر . فكان ينادى كل يوم فى القاهرة بالأمان والاطمان، النهب والقتل عمال من جماعته لا يسمعون له، وحصل منه للناس الضرر الشامل. ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام: إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف. فقيل تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه من ذلك، والله غالب على أمره.

فلما طفشت العثمانية فى القاهرة صارت أعيان المباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظونها من النهب، وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم: أنتم جراكسة، فيشهدون عندهم الناس

أنهم ما هم مماليك جراكسة، فيقولون لهم: اشتروا أنفسكم منا من القتل، فيأخذون منهم بحسبما يختارونه مَن المبلغ، وصارت أهل مصر تحت أسرهم. ثم صاروا الناس من عيّاق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر، فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر، واحتووا على أموال وقماش مافرحوا بها قط فى بلادهم، ولا أستاذهم الكبير. -

ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان، فإنه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم، فلما كان ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء، لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشراف طومان باى. بالوطاق واحتاط به، فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية، وظنّ أنه مأخوذ لا محالة، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محَملة ساسا وأطلق فيها النار، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر بن عثمان ما لا يحصى عددهم، واجتمع هناك الجّم الغفير من الزعر وعيّاق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليق وفيها الحجارة، واستمرّوا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر

وإلى قنطة قُدَيدار، واستمرّ الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب. وأشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية. ثم إن المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحارات على المماليك الجراكسة.

ومثلما تعمل شاة الحمى   فى قرض يعمل فى جلدها

فصاروا الأتراك كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب. ـ فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتدّ القتال بين العثمانية وبين الأتراك، ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعيّاق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان. ثم أن العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملوكها منهم، ثم طردوا الأتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم. ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قُدَيدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم. ثم إن العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة، فأحرقوا البيوت التى حول الزاوية، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ، ثم إن العثمانية طردوا الأتراك عن الناصرية إلى قناطر السباع.

ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبة، وصار يركب بنفسه ويكرّ من الصليبة إلى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر، ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة، وآخر عند قناطر السباع، وآخر عند رأس الرملة، وآخر عند جامع ابن طولون، وآخر عند حدرة البقر، ثم إن السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك. وأشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق إلى جهة قناطر السباع، وفرقة إلى جهة الرملة، وفرقة إلى جهة جامع ابن طولون، وفرقة إلى جهة باب زويلة. فلم يقاتل من المماليك السلطانية إلا القليل، وصاوا يختفون فى الاسطبلات خوفا من القتال، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها.

ثم إن طائفة من العثمانية توجّهوا من على مصر العتيقة، وطلعوا من على القرافة الكبيرة، وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عندها، وبُسط الزوابة، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها. ثم ان السلطان قصد يهدم قناطر السباع، فأخرق من عقدها بعض شىء. ثم إن الأتراك شحتوا جماعة من العثمانية فهربوا وطلعوا لى موادن الجامع المؤيدى، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة، واستمرّوا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنة أشرّ قتلة.

ثم صارت القُتلاء من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرميّة من بولاق إلى قناطر السباع وإلى الرملة وإلى تحت القلعة، وفى الحارات والأزقّة من الأتراك والعثمانية، وهم أبدان بلا رءوس. هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم يشلّحون الناس ويعرّونهم (من) أثوابهم، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها. ثم إن السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من مسك أحدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الأمان فلا يقتله. ـ ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما ظهر خُطب باسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة، وكان فى الجمعة الماضية خُطب باسم سليم شاه بن عثمان، فكان كما يقال:

لا تيأسنّ من فرج ولطف   وقوّة تظهر بعد ضعف

فاستمرّ السلطان طومان باى يتّقع مع عسكر ابن عثمان، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرّم، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم، وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية، واستمرّ السلطان يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده بمفرده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء، منهم شاد بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجّه إلى نحو بركة الحبش، وكان قليل الحظّ غير مسعود الحركات فى أفعاله، فكان كما يقال :

قليل الحظّ ليس له دواء   ولو كان المسيح له طبيب

وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان، وقد غُلّت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا. ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدّم من الزمان، فلما انهزم السلطان صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو، فاحترق سقف الإيوان الكبير والقبّة التى كانت به كون أن السلطان طومان باى كان به وقت الحرب، وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز، ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العدّاس خطيب الجامع وأحضروه إلى بين يدى سليم شاه بن عثمان فهمّ بضرب عنقه، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عدّاس وخلّصه من القتل، ولولا كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال، وقاسى شدّة عظيمة من الطربة.

ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك، ولعبوا فيهم بالسيف، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لاجنى، فصارت جثتهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة، فكان مقدار من قُتل فى هذه الوقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأربعة أيام، ولولا لطف الله تعالى (لكان) لعب السيف فى أهل مصر قاطبة.

ثم إن العثمانية صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات، فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه. ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها المماليك الجراكسة، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزارات، ويقتلون من فيها من المماليك الجراكسة، فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشرات وخاصكية ومماليك سلطانية، فضربوا أرقابهم أجمعين بين يدى ابن عثمان.

فلما هرب السلطان طومان باى وقُتل من قتل من الأمراء والعسكر، رجع السلطان سليم شاه إلى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ونصب فى وطاقه سنجقين، أحدهما أبيض والآخر أحمر، وذلك إشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة، هكذا عادتهم فى بلادهم إذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم دخل جان بردى الغزالى إلى القاهرة وعلى رأسه ورقة فيها أمان من السلطان سليم شاه، فلما دخل القاهرة توجّه إلى وطاق ابن عثمان وقابله هناك. وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أن الغزالى توجّه إلى غزّة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة، وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام السلطان الغورى، وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب، وانهزموا قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر.

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم، وقيل سجنوهم بالقلعة، وكانوا نحو أربعمائة مملوك، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان، فلما ظهروا قبض عليهم وغدرهم فى أمانه، وكان من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر فى أمانه فى الحال، فكان لا يثق أحد منه بأمان إذا أعطاه لأحد من الناس.

ـ وفيه قررّ السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه منهم نائب غزّة ومنهم كاشف للمحلّة وللشرقية والغربية، وولّى عدّة جماعة كُشّاف فى أماكن مختلفة من البلاد.

وفى اليوم الخميس عشرين المحرم نادى السلطان سليم شاه فى الصليبة وقناطر السباع، بأن أصحاب الأملاك التى فى الصليبة وجامع ابن طولون يخلون من بيوتهم، فإن السلطان سليم شاه طالع إلى القلعة ليقيم بها، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك المعنى، فخرجت الناس من بيوتهم على وجههم، وانطلق فيهم جمرة نار، وهجمت عليهم العثمانية فى بيوتهم وسكنوا فيها فى عدّة أماكن من بيوت القاهرة، حتى صارت الحارات والأزقّة ما تنشقّ منهم، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم، من الصليبة إلى جامع قوصون إلى قناطر السباع إلى داخل باب زويلة، وما خلا منهم موضع فى المدينة، وصارت الناس تسدّ أبوابها وتضيّقها مثل الخوَخ حتى لا تدخل فيها الخيول، ولم يفد من ذلك شيئا وهدموا ما بنوه وسكنوا بها. ثم إن السلطان سليم شاه طلع إلى القلعة فى موكب حفل من عسكره، وهذا أول طلوعه إلى قلعة الجبل، ولما

أن طلع إلى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمان. ـ وفيه أشيع أن المماليك الذين طلعوا بالأمان قيّدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى.

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرين المحرم أخلع الدفتردار على الشرفى يونس الأستادار قفطان مخمل مذهبا وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من إقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف، فأخذ قوائم من أولا الجيعان بمعنى ذلك ونزل إلى الشرقية، فما أبقى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية. وقرّر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين فى جهات الغربية، وقرّر الزبنى بركات بن موسى متحدثا (فى) جهات المحلة، وقرّر شرف الدين الصُغير وأبا البقا ناظر الاسطبل متحدثين فى الجهات القبلية، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الإقطاعات والرزق. وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير التى بيد أولاء الناس بسبب أقاطيعهم، فحصل لهم غاية النكد بسبب ذلك.

وفى أواخر هذا الشهر تشحّطت الغلال من القاهرة وارتفع الخبز من الأسواق، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا إلى القاهرة نهبوا المغل الذى كان فى الشون وأطعموه لخيولهم، حتى لم يبق بالشؤن شيئا من الغلال، ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين واضطربت أحوال الناس قاطبة، ثم إن

الأخبار ترادفت بأن السلطان طومان باى ظهر أنه بالصعيد عند أولاد ابن عمر، ومنع المراكب من الوصول إلى مصر بالغلال، فبموجب ذلك وقعت هذه التشحيطة بمصر.

ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد، ولا جلس على التكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما وحكم بين الناس وينصف الظالمَ من المظلوم، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة، من قَتْل وأخْذ أموال الناس بغير حق، وكان هذا على غير القياس، فإنه كان يشا ع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه فى مصر على قواعد السلاطين السالفة بمصر، ولم يكن له نظام يُعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه ولا عسكره، بل كانوا همجا لا يُعرف الغلام من الأستاذ. ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش إلى باب القلّة إلى عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة، وصار زبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض، وأخرب غالب الأماكن التى بالقلعة وفكّ رخامها ونزل فى مراكب يتوجّهون به إلى إسطنبول. ـ ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرملة من باب القرافة إلى سوق الخيل. ـ ثم إن العثمانية نصبوا خيمة فى وسط الرملة وجعلوا فيها أدنان بوزة، وخيمة أخرى فيها جفن حشيش، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد يحارفون كعادتهم فى بلادهم.

وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته والتفّ عليه جماعة كثيرة من العربان، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجمّ الغفير، وأشيع أن وصل إليه من ثغر الإسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود. فلما تحقّق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الأشرف طومان باى، وصار على رءوس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى تلك الوقعة التى كانت فى الصليبة، فخشوا من مثل ذلك.

وفى هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر ابن عثمان، فكانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجّهون (إلى) الضياع التى حول الخانكاه، فيحشّون ما فيها من الزروع من البرسيم والفول، فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم، ثم صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزّهم، حتى أبوابهم وخشب السقوف الذى هناك، حتى أخربوا غالب ضياع الشرقية وسواحل البحر، فلما يرجعون أواخر النهار يباتون فى الوطاق الذى فى الرملة، ثم صاروا يخطفون العمايم ويعرّون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء، فرسم السلطّان سليم شاه بعمل دروب فى كل حارة، وسدّوا عدّة طرق من الحارات. وكذلك عدة أبواب جعلوها خوَخ، وكان المتولّى عمل ذلك يحيى بن نُكار دوادار الوالى، فبلص الناس فى هذه الحركة وأخذ منهم جملة مال، ولم يُفد من عمل هذه الدروب شىء، وحصل للناس الضرر الشامل وجبوا الأموال من الحارات بسبب تلك الدروب. ـ ولما أقام ابن عثمان بالقلعة نزل منها ودخل حمام

خشقدم الزمام التى بالرملة، فأقام بها إلى بعد العصر، ثم عاد إلى القلعة.

وفى يوم الأربعاء رابع صفر وردت الأخبار بأن الأمير ألماس كاشف الغربية طوق أطراف جهات الجيزة على حين غفلة، وأخذ منها عدة خيول كانت هناك، وبعض جمال كانت هناك لخير بك نائب حلب، ثم أشيع أن ألماس قتل جماعة من العثمانية، فلما بلغ السلطان سليم شاه ذلك أرسل تجريدة إلى جهة الجيزة وعيّن بها ألفى عثمانى ورماة بالبندق الرصاص، فلما عدّوا إلى بَر الجيزة لم يجسروا أن يتبعوا ألماس وقانصوه العادلى، ثم إن ابن عثمان نادى فى القاهرة بأن أبواب المدينة وأبواب الدروب تغلق وقت صلاة الجمعة، خوفا من المماليك الجراكسة أن لا يطوقوا المدينة على حين غفلة من أهلها.

ثم إن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من المماليك الجراكسة الذين كانوا ظهروا بالأمان، وكانوا فى الترسيم فى الوكالة التى خلف مدرسة الغورى، وكان منهم جماعة فى سجن الديلم، وكان فيهم أمراء عشرات، فرسم بأن يُنفوا إلى إسطنبول، فأخرجوهم وهم فى قيود وأركبوهم على حمير، والأعيان منهم على جمال، ومنهم من هو ماش على أقدامه وهو فى زنجير، وكانوا نحو سبعمائة مملوك، وقيل أكثر من ذلك، فشقّوا بهم القاهرة ثم توجّهوا بهم إلى بهم إلى بولاق وأنزلوهم فى المراكب فلما استقرّوا فى المراكب خشبوا منهم جماعة بقرامى خشب فى أيديهم، ثم سافروا بهم فى البحر إلى ثغر

الإسكندرية، ثم يتوجهون بهم من هناك إلى إسطنبول، فصار لنسائهم وأولادهم ضجيج وبكاء فى ساحل بولاق عندما ودّعوهم.

وفى يوم الأربعاء حادى عشر صفر أخلع السلطان سليم شاه على القضاة الأربعة الذين كانوا فى أسره بحلب، وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محمود بن الشحنة الحنفى وقاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى، وأعادهم إلى وظائفهم كما كانوا فى الأول بمصر. وكانت الأحوال قد فسدت جدا فإن السلطان سليم شاه لما دخل إلى القاهرة جعل فى المدرسة الصالحية قاضيا من قبله سمّاه قاضى العرب، فصار لا يحكم إلا فى المدرسة الصالحية، فمنع نوّاب قضاة مصر والشهود الذين ها قاطبة أن لا يعقدوا عقدا لأحد من الناس ولا يكتبوا إجارة ولا وكالة ولا وصيّة ولا شيئا من الأشغال قاطبة، فكانت الناس إذا راموا أن يعقدوا عقدا لتزوّج من أبكار أو ثيبات فيمضون إلى المدرسة الصالحية ويحصل لهم كلفة زائدة ومشقّة، وكذلك فى الوصيّة أو فى جميع أشغال الناس، فضاعت على الناس حقوقها واضطربت أحوال الأحكام الشرعية فى هذه الأيام. وكان القاضى الذى قرره ابن عثمان يحكم فى الصالحية أجهل من حمار، وليس يدرى شيئا فى الأحكام الشرعية، ويضيّع على الناس حقوقها، وكان إذا دخل عليه مبلغ فى كل يوم يعطى الموقّعين والشهود الذين عنده من ذلك المبلغ بعض شىء

ويقول الباقى حصّة بيت المال، فيشيل بقية المبلغ فى صندوق ويقفل عليه، واستمرّت القضاة والشهود مع قاضى العرب الذى قرره ابن عثمان فى غاية النكد، ومنع القضاة والشهود من الحكم والشهادة، وأقاموا على ذلك نحو شهر وقد منعوا من ذلك، وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين بن الزيتونى فى معنى ذلك :

منعنا الحكم والإشهاد أيضا	فيا سنة الكرى عينى فزورى
مُنعنا كلنا من غير ذنب	كأنا قد أتيناهم بزور

وفى هذا الشهر أشيع أن السلطان طومان باى أرسل عدة مطالعات إلى المباشرين وأعيان الناس وإلى كاتب السّر حتى إلى الخليفة، فأرسل يعتب عليهم ويقول لهم: يا سبحان الله إن كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم. وأرسل يعتب عليهم ويتحرّش بهم، ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول إلى ابن عثمان: إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائبا عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله إليك فى كل سنة، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل فى خطية أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقينى فى برّ الجيزة ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء منا. فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة، وأحضر

جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باى، وكتب ابن عثمان خطّه عليه، ووقع فى ذلك اليوم الاتفاق بالقلعة أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجّهون إلى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم، ثم إن ابن عثمان أخلع على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذها وقال لهم: انزلوا اعملوا يرقكم حتى تتوجّهوا إلى طومان باى نحو الصعيد. فنزلوا من القلعة على ذلك، ثم إن الخليفة امتنع من التوجّه إلى السلطان طومان باى، وقال: أنا أرسل دوادارى برد بك صحبة القضاة الأربعة. وأشيع أن المطالعة التى أرسلها السلطان طومان باى إلى ابن عثمان ذكر فى ذيل المطالعة: ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز، فإن معى ثلاثين أميرا ما بين مقدّمين ألوف وأربعينات وعشرات، ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا، وما أنا بعاجز عن قتالك، ولكن الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين. ثم فى عقيب ذلك توجهت القضاة الأربعة وبرد بك دوادار الخليفة إلى عند السلطان طومان باى نحو الصعيد.

وفى هذه الأيام قويت الإشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان ببرّ الجيزة، فكثر القيل والقال فى ذلك ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك.

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية، وصاروا يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم

ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم. ونهبوا بلاد عبدالدايم بن أبى الشوارب وأحرقوها، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية، منهم قليوب وقلقشندة وغير ذلك من البلاد، ووصلوا إلى شبرا المنية، وصاروا يعدّون من شبرا إلى قنطرة الحاجب. فلما تزايد الأمر أرسل إليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى، وجعل باشهم جان بردى الغزالى، فخرجوا من القاهرة على حميّة وتوجّهوا إلى الشرقية فأقاموا بها أياما، فأخلت العربان من وجههم وصعدوا إلى الجبال فرجع ذلك العسكر من غير طائل من العربان.

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من بلاد الصعيد بأن القضاة الأربعة وبُرد بك دوادار الخليفة وقاصد ابن عثمان مُصلح الدين الذى كان أرسله معهم وجماعة من العثمانية، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان ومعهم جماعة من الأتراك فقتلوا العثمانية، وهرب برد بك دوادار الخليفة وعرّوه وأخذوا أثوابه وهرب حتى نجا من القتل، ونُهب جميع ما معه من القماش وغيره، وأشيع قتل قاضى البهنسا عبدالسلام، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير. فلما بلغ ابن عثمان ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان. ثم إن ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش.

وفى يوم السبت حادى عشرين صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجمّ الغفير من العساكر وتوجّه إلى الوطاق ببركة الحبش، وتوجّهت المباشرون صحبته حتى القاضى كاتب السرّ. ـ وفى هذه الأيام اختفت السقايين بجمالهم وضجّ الناس من العطش، وزعموا أن ابن عثمان طلب جميع السقايين بجمالهم وروايا‌هم حتى يسافروا معه إلى الصعيد بسبب السلطان طومان باى إن كان يهرب منه إلى بلاد الزنج، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف، وقيل خمسة أنصاف.

وفى يوم السبت ثامن عشرين صفر أشيع أن أوائل عساكر السلطان طومان باى قد وصل إلى ترسة بالقرب من الجيزة، فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطىء البحر بطُرا لأجل تعدية عسكره، وكذلك فى برّ مصر العتيقة. ـ وفى هذه الأيام امتنع الجالب من البضائع التى كانت تدخل إلى القاهرة من الأجبان والسمن والقشطة وغير ذلك من البضائع، التى كانت تجلب من الجيزة وقليوب والمنية وشبرا، واضطربت أحوال القاهرة جدًا بسبب إقامة هذه الفتنة.

وفى ربيع الأول كان مستهلّ الشهر يوم الثلاثاء، فأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج إلى بلاد الشرقية كبس على عدة بلاد من الشرقية حتى وصل إلى التل والزُّمَرُونين وإلى زنكلون، فنهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات، وصار

يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان، كما فعل أقبردى الدوادار بالعرب الأحامدة وأولادهم، فاشترى بعض الناس منهم بنتا بأربعة أشرفية وأعتقها وأوهبها إلى أمها وقد رقَّ لها من الأسف على ابنتها، وفعل فى الشرقية ما لا فعله البُخت نصرَّ لما دخل إلى مصر. ثم إن يونس باشاه نادى فى القاهرة بأن كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئا من الأبقار والأغنام يردّه على أصحابه، وكذلك أولاد الفلاحين، ولام جان بردى الغزالى فيما فعله فى الشرقية.

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا فى القلعة فى الترسيم، بأن يحضروا إلى بين يديه بالوطاق الذى ببركة الحبش، فنزلوا بهم من القلعة وهم على بغال وشىء على حمير وشىء مشاة، وهم جنازير وعليهم كبورة عتق وعلى رءوسهم كوافى بغير شاشات.

فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدّم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدَّمى ألوف وغير ذلك، فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه وبِّخهم بالكلام ثم أمر بضرب أعناقهم أجمعين.

فضربت أعناقهم بالوطاق الذى ببركة الحبش، وذلك فى يوم السبت سادس ربيع الأول، وكانت هذه الكاينة من أعظم الكواين فى حق الأمراء، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان ثم غدرهم وقتلهم، فكان لا يثق أحد له بأمان وليس له قول ولا فعل.

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان سليم شاه إلى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى، وقد بلغه أنه قد وصل إلى المناوات ومعه من العربان والعسكر من المماليك الجراكسة الجم الغفير، فلما عدى إلى الجيزة أقام بها إلى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول، فتلاقى عسكر بن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان، وقيل على المناوات، فكان بين الفريقين وقعة لم يسمع بمثلها، أعظم من الوقعة التى كانت على الريدانية، وقيل كانت هذه الوقعة عند كوم الحمام، فكان بين الفريقين وقعة مهولة وانكسرت العثمانية غير ما مرة، وطردتهم الأتراك حتى ألقوا أنفسهم فى البحر، وكانت الكسرة عليهم أولا، وقتل منهم جماعة كثيرة. ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الأتراك وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص، فهزموهم ووقعت الكسرة على الأتراك، وولى السلطان طومان باى مهزوما، فتوجه إلى بلدة تسمى البوطة فى أعلا تروجة. وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر، وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته، كل ما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس، فكان كما يقال فى المعنى:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر قطع رءوس المماليك من الجراكسة، وقطع رءوس جماعة كثيرة من العربان لذين كانوا مع السلطان طومان باى، فلما تكاملت قطع الرءوس رسم ابن عثمان بإحضار مراكب، فلما حضرت وضعوا فيها

الرءوس الذى قتلوا، فلما عدوا إلى بر بولاق صنعوا مدارى خشب وعلقوا تلك الرءوس وحملها النواتية على أكتافها ولاقتهم الطبول والزمور، ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة، وشقوا بتلك الرءوس من باب البحر إلى باب القنطرة، وطلعوا بهم من على سوق مرجوش وشقوا بهم من القاهرة، وكان لهم يوم مشهود. وقيل كان عدة الرءوس الذى قتلوا فى هذه الوقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك.

ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر، أقام فى بر الجيزة أياما، وسيّر هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها . ـ ولما كثر الاضطراب بالقاهرة ضيقت الناس أبوابها الكبار وجعلوها خوخا صغارا، لا يدخل منها فرس ولا راكب . ـ وفى يوم الأربعاء سابع عشرة نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق، وضربوا للناس فلوسا جددا كل اثنين بدرهم ونصف، وعليهم اسم سليم شاه، فكانوا فى غاية الخفة، فتضرروا الناس منها إلى الغاية.

ومن هنا نرجع إلى أخبار السلطان طومان باى، فإنه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات، وقيل بوردان، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك، فلما انكسر توجه إلى نحو تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى وابن أخيه شكر مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى

البوطة، فعزم حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة، ثم إن السلطان طومان باى أحضر إلى حسن بن مرعى وابن أخيه شُكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه أنهما لا يخونانه ويغدرانه ولا يدلسان عليه بشيء من أسباب المسك، فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك، فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان. فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا فى البلاد، وتمت الحيلة على السلطان طومان باى، وخانة حسن بن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه، وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب طومان باى، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى، وأقام عنه بما عليه من المال، فلم يذكر له شيئا من ذلك ولا أثمر فيه الخير، فكان كما يقال فى المعنى:

لا تركنن إلى الخريف فماؤه	مستوخم هواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها	ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوارة زمط وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عتبه

ببعض كلمات، فلماخرج من قدامه توجهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به، فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر إنبابة، فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق بذلك. فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة، وكان ذلك اليوم يوم الخماسين، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر، فعدوا بالسلطان طومان باى من بر إنبابة إلى بولاق، فطلعوا به من هناك هو راكب على إكديش وهو فى الحديد، عليه لبس العرب الهوارة كما تقدم. وكان السلطان طومان باى لما قبضوا وعليه أقام فى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما، وكان أشيع أن ابن عثمان يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقتله، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره. وفى مدة إقامةابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله، ومن بعذ العصر يرجعون إلى الوطاق يباتون به.

فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى فخنق من ذلك وعدى به، فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به. فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، فلما تحقق أنه يشنق

وقف على أقدامه على باب زويلة، قال للناس الذين حوله: أقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات. فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلى: اعمل شغلك. فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه جوخ أحمر، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفى رجله لباس جوخ أزرق.

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شابا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره، ووقع منه فى الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال. وكان لما سافر عمه السلطان الغورى،جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة، وكانت الناس عنه راضية فى مدة غيبة السلطان، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك، فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ولا يقبل فى أخذ من الناس مرافعة ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام

وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين: افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر، وخذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة. فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك، وقال: ما أجمل هذا أن يكون فى صحيفتى.

وكان ملكا حليما قليل الأذى كثير الخير، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر أربعة عشر يوما، فإنه تسلطن رابع عشر شهر رمضان، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة. وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البلدان، وآخر الأمر شنق على باب زويلة، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة، ومضت أخباره كأنه لم يكن، وقد قلت من أبيات:

لهفى على سلطان مصر كيف قد	ولى وزال كأنه لن يذكروا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة	ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يا رب فاعف عن عظائم جرمه	واجعل بجنات النعيم له قرا

وكان شنق السلطان طومان باى من نهايات سعد سليم شاه بن عثمان، ولم ينتجح أمره من بعد ذلك، ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على

باب زويلة قط، ولا علقت رأس على باب زويلة قط، ولم يعـهـد بمثل هذه الواقـعـة فى الزمن القـيم، ومن عـهـد شـاه سـوار لما كلبـوه على بـاب زويلة لم يـعلق عليـه من لـه شـهـرة طائلة غـيـر السلطان طومان باى.

رقم الإيداع ٧٠٩٤ / ١٩٩٦

I. S. B. N 977-01-4849-0





مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦



مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب